غالب حسن

قضايا إسلامية معاصرة

اصالة النبوة

في حياة الرسول الأكرم (ص)

دار الهادي

اصالة النبوة

في حياة الرسول الكريم



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

اصالة النبوة

في حياة الرسول الكريم

غالب حسن



للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة المحرر

النبوة من أقدم الظواهر في حياة البشرية، فقد اقترنت بأبي البشر آدم الذي اصطفاه الله تعالى واتخذه نبيا، وتلاحق ظهور النبوات التشـــريعية والتبليغيـة مع تطور الاجتماع الانساني واتساعه، اذ كانت العناية الإلهية تهدي الانســـان باستمرار نحو كماله العقلـــي والروحـــي مـــن خـــلال دعـوات الأنبيــاء عليــهم السلام، ولهذا تظل المكاسب الأهم التي انجزتــها البشــرية في تاريخــها مدينـة للدور الذي اضطلعت به النبوة. وأخيراً خُتمت النبوة بمحمــد صلــى الله عليـه وآله وسلم، وجاءت رسالته مهيمنة ومصدقة لما جاء به الرسل، فــهي مهيمنـة باعتبارها تنفي ما تعرضت له تعاليم الســـماء مـن تحريـف وتشـويه، وهـي مصدقـة باعتبارهـا تسـتوعب أصـول الديانـات الســماوية التوحيديـة، لــــ ﴿أنالدين عند الله الاسلام﴾ آل عمران/ ١٩، فالدين الذي دعا اليه الانبياء مــن آدم إلى محمد عليهم السلام واحد، غير ان الشـــريعة تختلـف تبعـاً لاختـلاف المجتمعات وحاجاتها ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنــهاجا﴾ المـائدة/ ٤٨، إلى أن بلغت الشريعة صورتها الكاملة الخالدة مع النــبي الخـاتم، بمـا اشـتملت عليه من أصول ثابتة تستجيب للمتطلبـــات الثابتـة، وعنـاصر مرنـة تشـبع المتطلبات المتغيرة في الحياة.

ومنذ أقدم العصور حاول الباحثون دراسة ظاهرة النبوة وتحليلها، وصياغة تفسير ميتافيزيقي للوحي، كما قدمت الكتب السماوية تفسيراً مسهباً للنبوة، واستعرضت مختلف المواقف حيالها، وأشارت إلى منشأ جحود دعوات الانبياء والتشكيك فيها، وكيف ان ذلك الجحود والتشكيك لا يستند إلى أساس علمي ولا يدعمه البرهان، وانما يصدر عن عناد واضطراب في الرؤية، وان عودة الانسان إلى فطرته وبداهته العقلية كفيل بتبديد ما ران على قلبه من حُجب، نجم عنها طمس فطرته وظلام قلبه.

ولم يكف الدارسون من تقصي ظاهرة النبوة وتحليل تجارب الأنبياء الروحية والعملية، وتنامت الدراسات في هذا الحقل في العصر الحديث، حتى أمسى أحد ابرز المباحث في فلسفة الدين، وتجاوزت الدراسات المتأخرة المناهج التقليدية المتداولة لدى المتكلمين ورجال اللاهوت، وركنت إلى مناهج بديلة تستند إلى توظيف ادوات متنوعة مستقاة من الدراسات الانسانية الحديثة. ولعل المفكر الجزائري مالك بن نبي من أوائل الذين طبقوا منهج التحليل النفسي لدراسة النبوة ودراسة القرآن بوصفه ظاهرة، قبل أكثر من نصف قرن. وقد برر لجوءه لمنهج التحليل النفسي بقوله: (يجب ان يكون اعجاز القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بذوقه الفطري... أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل الجاحظ في منهجه الذي رسمه لمن جاء بعده. ولكن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي، وامكانيات عالم اللغة في العصر العباسي، وعلى الرغم من هذا فإن القرآن لم يفقد بذلك جانب الاعجاز، لأنه ليس من توابعه بل من جوهره،

وانما أصبح المسلم مضطراً إلى أن يتناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طرقاً للتحليل الباطن، كما حاولنا أن نطبقها في هذا الكتاب) يعني كتابه: الظاهرة القرآنية.

ويبدو انه بقدر ما تتطور معارف الانسان حول الطبيعة والنفس الانسانية، بوسعه ان يطل من نافذة جديدة لرؤية الظواهر موضوع دراسته، فبأمكانه ان يوظف معارفه في التعرف على ظاهرة النبوة، شريطة ان يتنبه إلى ان هذه الظاهرة تستبطن بُعداً غيبياً يجسده الوحي واتصال النبي بالله تعالى.

ويحاول الأخ الأستاذ غالب حسن في هذا الكتاب ان يتعرف على تجليات النبوة واشعاعاتها في حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، عبر تأملات سريعة لكنها مكثفة، يتوكأ فيها على أكثر من منهج، ويدلل على «أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم»، ويوضح بجلاء ان النبوة حقيقة أصيلة في وجدان محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وانها القيمة العظمى التي سادت كل نبضات روحه، فاستمد من وهجها في داخله، ومن حضورها في أعماقه، مشروعية الطرح ودستور المقاومة والمثابرة. انها الحقيقة الأولى في حياته كلها، وكل الحقائق الاخرى انعكاس أمين لهذا الجوهر الزكي. ان كل انسان يطرح نفسه من خلال امتداد معين في العالم الخارجي، وهذا الامتداد انعكاس لشاكلة ذاتية، قال تعالى: ﴿كل يعمل على شاكلته﴾. لقد كانت النبوة هي الشاكلة التي جسّدت الذات بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهي تشكل جوهر افكاره واتجاهاته وحواسه ومشاعره.

وفي التفاتة دالة يلمح الباحث إلى ان هناك انسجاماً وتطابقاً بين الفعل والشاكلة، فيجد ان أول انجاز للنبي، وهو يحط في «قبا» ومن ثم المدينة، هو بناء مسجد، وكانت الصلاة هي العبادة التي دشن بها هذا المسجد. مما يعني أن أصالة العبادة التي تكشف عن أصالة النبوة، تتعزز بهذا الاهتمام البالغ الذي أبداه رسول الله في بناء المسجد، فقد تحوّل ذلك إلى مدخل نظمي في تاريخ الاسلام، اذ تولى هذا المسجد تأسيس الزمن الاسلامي بأروع تفاصيله فيما بعد.

ويجيء نشر هذه الدراسة في سلسلة كتاب مجلة قضايا اسلامية معاصرة، بغية التعرف على شيء من تجليات النبوة في حياة الرسول الكريم، والفاعليات العقائدية والتشريعية والاخلاقية لرسالة النبي، وما يمكن ان تمنحه من أمن وسعادة للمسلم المعاصر، لو أحسن التعاطي معها وتمثلها في حياته.

وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت واليه أُنيب.

عبدالجبار الرفاعي

(١)
الإسلام دين انتشاري

النبوة في حياة الرسول الكريم حقيقة جوهرية مؤسسة، فهي الرقم البارز الذي يستثير نظر الفاحص في تضاعيف سيرته ومواقفه وقراراته وإمضاءاته،حيث يضغط هذا الرقم الحياة الطاهرة في نقطة مركزية، مرهونة بجورها لا غير، ومهما يحاول الفكر أن يفتش عن باعث خارج دائرة النبوة في حياة هذا الإنسان الكبير، سوف ينتهي بفشل ذريع، كما فشلت كل محاولات نسخ النبوة المحمدية، قديماً وحديثاً، فمنذ أن صدع صلى الله عليه وآله وسلم بالخاتمية، وإلى هذه اللحظة، برهنت الدعوة على صدقها بلغة الواقع الصريح، إذ تهاوت كل دعاوى النبوات اللاحقة، سواء كانت بحجة الإكمال أو التحدي أو بإيحاء الوهم، وبمقدار ما توارت ظاهرة الدعاوى اللاحقة في غياهب الزمن وغيبوبة الذاكرة، تتقادم دلائل الخاتمية المحمدية من استحكامها بالزمن وملئها ساحة الذاكرة، فمسيرتها تستوي على نبضات التاريخ، وتستوعب إرادة المصير البشري، ولم تقع في لحظة من لحظات عمر الإنسانية على هامش الاعتبار أو التأثير، فهي إما هدف لطاعن، يريد استئصالها من الجذور، وإما بغية سائل يبغي اكتشاف الحقيقة وإما بشرى تدشن ضميراً بحياة جديدة، فلم تراوح مكانها قط.

تتجدد و تتحدى وتضيف، وإفرازات التاريخ الصائبة في خدمتها، بل تمهد السبيل وتعبد الطريق لإعلان حقها وأهليتها في التجدر و الانتشار.

الإسلام دين انتشاري!

هذه هي المقولة التي خرج بها باحثون غربيون، وهي نتيجة منظورة في نطاق من الحس الشافع لدلالته بقرب المعاينة وملامسة المعايشة، وهي نتيجة منظورة بمراصد المراقبة والمتابعة بقصد استشراف المستقبل، وتصنيف اتجاهاته الحاكمة والموجهة، وهي نتيجة نافذة في ضمير المسلم من إيحاء الإيمان و صدى الاعتقاد. والانتشار هنا محسوب بدقة المفارقات بين جغرافية النشأة الأولى ومديات الانفتاح الغريبة والمدهشة بسعتها واستمرارها. بين قدم النشأة وانقلاب الزمن على معادلاته الساكنة وقيمه التي أرتهنلها البشر عقوداً طويلة، بين صيرورة النشأة ومفاجآت العلم المذهلة التي زعزعت الثقة بالمسلّمات والبدهيات.

الإسلام دين انتشاري!

هذه المعادلة حقيقة حية ساطعة، تتوزع مناشئ انتزاعها هنا وهناك، في كل أنحاء العالم. تتخطى جغرافية الغربة والحقد، بل تتخطى جغرافية الاستبداد التكنولوجي والتقني، ومن مصاديقها تلك المحاولات الرامية الى التشويه والعزل والاختزال. ودعوى صراع الحضارات، مردها هذه القدرة الفذة على الانتشار، وليس الى هذا الموج البشري المتلاطم، الذي تشهده معمورة الإسلام التقليدية، وليس الى الكنوز الطبيعية المذهلة التي تستبطنها هذه المعمورة، فما قيمة الملايين من البشر، وهي لا تعرف طريقها إلى

الحياة، يصهرها الفقر والجهل والمرض؟ وما قيمة الثروات والأموال، وهي رهينة بيد الغرباء، يتلاعبون بها كما يريدون؟

ان منطق الانتشار هو الذي صمم معادلة الصدام في ذهن هذا الخبير الأمريكي. لقد أدرك أن الإسلام في حالة فعل وانفعال دائمين بكل ما يحدث في العالم، وبكل ما يستجد على ساحة الكون، هذه هي النقطة التي استشفها الخبير الكبير، ثم بنى عليها تصوراته عن المستقبل، ودعوته لم تكن تهديداً بل تحذيراً، ولم تكن وصفاً محكوماً بظواهر عابرة، بل تحليلاً دقيق، يستمد أرقامه من التاريخ والواقع.

(٢)
مصدر الثقة... أين يكمن؟

كانت ثقته بنبوته مصدر القوة التي تبث في قلبه شجاعة الموقف، فلم يعرف الانهيار أو اليأس، استمر بعزم موكول الصلة بنبع السماء، واثق الخطو بما سينتهي إليه التاريخ ، وقد بدأت هذه الثقة إعلاناً، يسفر عن أمل مشرق بضرورة الإنجاز، وكأنه قدر متحقق من قبل، وإلاّ، فأيّ معنىً لتلك الدعوة الغريبة، وهو يضع عشيرته الطاغية على التخوم الفاصلة بين الاختيار والتردد؟

أجل ... فلم يكن يوم الدار حدثاً عادياً، بل هو بشرى تملك زمام التاريخ، لا تمت بصلة الى قانون الأماني و الأحلام، بل تنبع من إمضاء قد نبت في صلب الوجود. لقد كان محمد يستمد قوته من ثقته بنبوته أكثر من ثقته بنفسه، وهو الإنسان الخارق المواهب. كان يستنبت كل آماله من إيمانه المطلق بنبوته، وليس من ارتكانه الى عشيرته، وهو ابن قريش، وفي الصميم من بنيتها الهيكلية والمعنوية، كان يتوسم المستقبل القاطع بالانتصار من اعتقاده الجازم بنبوته، وليس من مزاياه الشخصية الرائعة، التي فاق بها البعيد والقريب، فهو الجميل الأمين القوي ...

ماذا يعني كل هذا؟

إن النبوة حقيقة أصيلة في ضمير محمد بـن عبـدالله. هـي القيمـة الـتي سادت كل نبضات روحه، فاستمد من وهجها في وجدانه، ومن حضورهـا في أعماقه، مشروعية الطرح ودستور المقاومة والمثابرة. كانت النبوة حقيقة متفجرة بمادة الحضور التي تشكل كل مضامين حياته.لو كانت النبـوة في حسابه عرضاً طارئاً أو خاطرة جميلة أو تجربة على ذمة النتائج المأمولـة أو رغبة محسوبة الهدف .... لتراجع دورها، وانكمـش زمنـها، وغـابت في زحمة الأهوال التي واجهها الرسول العظيم ... فالعَرَض يزول، والخـاطرة تمحوها عاديات الزمن، والتجربة يطويها النسيان إذا أخفقت مرة أو مرتين ، والرغبة تستعر بالعاجل، وتتراخى إذا تـأجل المحصـول لأمـد طويـل... ومحمد تجاوز كل هذه المقتربات، وبقي لصيقاً بشعوره وإيمانـه النبـوي ، بل ونبوته الخاتمة، و بهذا تتبدى ظاهرة النبـوة في نفـس محمـد الطـاهرة أصيلةً متجذرةً، بـل هـي الحقيقـة الأولى في حياتـه كلـها. وكـل الحقـائق الأخرى، مجرد انعكاس أمين لهذا الجوهر الزكـي، فلـم يـهبط بـه أذىً الى مهاوي اليأس، ولم تكبله عوائق الصد من الاسـتجابة، ولم تثنـه عمليـات النبذ الاجتماعي والعشائري، ولم ترهقه قسوة الجوع والعطش، ولم تفت في عضده مواقف النفرة وقرارات الإبعاد، ولم ترعبه تكاليف الغربـة والهجـرة .... إذن، وفي ضوء كل هذه الإمارات الهادية، يمكننا ان نقول وبكل اطمئنـان علمي، إن إصراره صلى الله عليه وآله كان نبوياً ... كانت أصالة النبوة هـي

التي تنسج خيوط هذا الإصرار الرائع، وليست إرادة محمد المجردة.

يقول التاريخ:

ان رسول الله مضى في دعوته، حتى سرى الأمر في المجتمع قوةً تنذر بالتغيير، فاستدعت قريش عمه أبا طالب لتنذره (وإنّا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين...)... ويروي التاريخ أن أبا طالب أخبر الرسول الكريم بمقولة قريش التي كانت حاسمة وقاطعة، فماذا كان جوابه صلى الله عليه وآله وسلم؟

إنه قال:(يا عم، والله! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته ...).

لا نريد هنا أن نتحدث عن صلابة الموقف، وإنما نريد الإمساك بسر هذه الصلابة الفذة، التي جسّدت كل ألوان الصمود والتحدي. صلابة ليست مرهونة بأي شرط، إلا شرط موضوعها الذي تأسست من أجله!

إن أصالة النبوة هي المسؤولة عن هذه الصلابة. إن محمداً ينطلق من فكرة، كانت قد استوفت حقها من مباشرة الرؤية المطمئنة، من استيعابها لجوهر عقله، وعلى أرفع مستوىً من الوضوح والبيان. إن ثقته بنبوته هي التي حملته على هذا الموقف، الذي تجاوز من خلاله نفسه وعمه و عشيرته وكل النتائج المرعبة التي يمكن ان تترتب على هذا الموقف.

(٣)
أصالة النبوة في ضمير محمد

يقول التاريخ:

ان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وقد أجمع العرب، وخاصة قريشاً على معاداته و مقاطعته، فجعلوا منه هدفاً للعداء والسخرية، ومثلاً للكذب والافتراء ـ كان يستشعر ثقل المهمة الخارقة، ويحس من أعماقه تعقيدات الموقف، وملابساته المتداخلة، فمن الطبيعي ان تعتريه حالة من التساؤل عن مصير المهمة، في هذا الوسط الجدب القاحل، وقد عكس شعوره هذا بقوله، بعد أحد التجارب المرّة المؤلمة: (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس...).

إنها إحدى التطبيقات الطبيعية لقانون التكوين البشري، فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فرد من أبناء هذا النوع،المحدود الهمة والطاقة والقوة. وكان جدبُ الاستجابة كفيلاً بامحاء واقتلاع جذر الفكرة؛ لأنها في الأساس للبشر، لهؤلاء المخاطَبين، وليس للخلود على الرفوف العالية، ولا للمران الذهني المجرد، ولكنَّ محمداً نبي، وهو واثق من هذه الرسالة الى حد الكشف الحسي. إنّ ﴿يا أيها المدثر قم فانذر ...﴾ سابقة بموضوعها الحي الساخن على أي استشعار بالضعف. وإذا وجد هذا الاستشعار حيّزه

الطبيعي من قانون التكوين الإنساني في حياة محمـد، فـان صـدى النـداء السماوي يقوم بمهمة الإزاحة البديلة، يقلب المعادلة تمامـاً، وهـذه الحالـة تندرج في إطار القاعدة الكلية التي تصممها الآية الكريمة ﴿قل إنما أنا بشـر مثلكم يوحى إليّ...﴾.

إن أصالة النبوة في ضمير هذا الإنسان، هي نقطة البداية،ومصـدر القـرار، ومرتكز الإحالة،و مآل الإرادة، ومنطلق التبرير، وقاعدة التعليل.

يقول التاريخ:

(وقالوا له: أُخرج من بلدنـا، والحـق بمنجـاتك مـن الأرض، أغـرَوا بـه، سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وقعـدوا له صفّين على طريقه،فلما مر بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعـهما ألا رضخوهما بالحجارة، حتى أدموا رجليه صلى الله عليه وآلـه.. وكـان إذا ازلفته الحجارة، قعد الى الأرض، فيأخذون بعضديه، فيقيمونه، فـإذا مشـى رجموه وهم يضحكون ...).

هذه عينة من تاريخ استمر على هذه الشاكلة سنين طوالاً، حيث تكشف عن واقع عقيم، قاحل العطاء، يبعث علـى اليـأس المطلـق، لا يسـتمرئ أي مساس بعاداته وسننه وعقائده، وصاحب الدعوة غريب، تطـارده شـبهات السؤال المدروس والموهوم عن عقله وغايته وأمله. ولكنَّ محمداً رسول الله، إنه نبيٌ، وهو على ثقة صارمة بهذه المهمة الكونية الكـبرى، وهـو موعـود بالنصر المؤزر؛ ولذا لم يأبه لهـذا الصـدود الجـافي، ولم يرهـن إرادتـه الى علائم الواقع المنظور. لقد كانت ثقته بنبوته في مرتبة السبق على كل شيء، ومقياس التعامل مع كل معطىً وكل نتيجة وكل موقف، ومـن هنـا، نفـهم

سر هذا الإصرار على مواصلة الصدع وديمومة الدعوة (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله، او اهلك فيه، ما تركته...).

إن أصالة النبوة في ضمير محمد صلى الله عليه وسلم حقيقة واضحة، لانها لم تسمح لإغراءات المنظور أن يتغلب عليها، ولم توكل زمام قرارها إلى حكم هذا المنظور مهما كان صارخ القَسَمات، ولو خُلي محمد ونفسه المجردة، ربما استكان الى معادلة الواقع الظاهر ، ولكن هناك شيء زائد، ترامى بثقله الكوني في حنايا ضميره، فأزاح عنها إيحاء الواقع الظاهر. هذا الشيء هو النبوة، الواثق من عُهدتها إليه ، والمطمئن الى ابتلائه بمسؤليتها، وبذلك ترسِّم بكل جلاء أصالتها الجذرية في ضميره الصادق.

(٤)
نبوة فاعلية وليست فعلية

هل كانت نبوته من وحي الذات؟!

هل كانت هذه النبوة التي غيرت التاريخ تماماً عبارة عن انبثاق روحـــي في لحظة إشراق؟!

هل كانت هذه النبوة تطلعاً مفاجئاً الى أُفق متعالٍ؟!

إن ظاهرة النبوة المحمدية متصلة الحدث، متواصلــة الطـرح، موصولـة اللاحق بالسابق، فلم تكن نبوته (أنات) محدودة أو مكـرَّرة، أو محصـورة في نماذج من سلوك وتفكير، بل هي نبوة للحياة، فإن نظرة سريعة الى هـذا الحدث العظيم، تكشف عن مسئوليته الفذة في انتظام الزمن، **﴿ما فرَّطنـا في الكتاب من شيء﴾**، **﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتُبيِّـن لهـم الـذي اختلفـوا فيه﴾** وقد أعلن صاحبها بكل ثقة واطمئنان عـن تطـابق خـالد بـين نبوتـه ومسألة الحياة، بكل ما تتسع له من معنى ودلالة **﴿فطــرةَ الله الـتي فطـر الناسَ عليها ذلك لا تبديلَ لخَلق الله ذلك الدين القيّــم﴾**، أعلـن بكـل إيمـان وإصرار عن استمرار هذه النبوة حقيقةً دائمة، لا تتخللها فــترة سـكون أو خمول أو تعثر أو انقطاع، تماماً مثل ديمومة الحياة، وانتصارهــا السـاحق على الموت، **﴿فاصدَعْ بما تُؤمر﴾**، وجاء الواقع مصدقاً لكلا الادعاءين، فهذا

هو الإسلام، وبعد مئات السنين، يشكل عنوان حضارة قائدة، وقد امتصت كل الروافد الطارئة عليها، وأضافت وتضيف للعقل الإنساني المزيد من العطاء، فليس الأمر سهلاً أن يكون هذا الدين هو المنازع الحقيقي للغرب، بكل جبروته وطغيانه المادي والتقني . ولو كانت هذه النبوة الشاملة الدائمة من إيحاء الذات، لتراجعت او ترددت ولو لحظة من الزمن في بحر عمرها الطويل، المليء بالمشاق والصعوبات الخارقة، فهي إذن من إيحاء الحق، تملك سلطة نافذة على ضمير محمد وعلى إرادته وعلى عواطفه. ومنها كان يستمد زاد التغلب على متاعب وأشواك الطريق، ومن أصالتها يتزود عزم التطلع والتشوُّف الى ما وراء الواقع المجذوم بمرض العناد.

إن النبوة، التي هي من وحي الذات، لا يمكنها أن توالي مسيرتها لهذه القرون الطويلة، واثقة من دعواها، وواثقة من مستقبلها، وواثقة من رتبتها التي ختمت الزمن بقرارها الحاسم.

كانت نبوته صلى الله عليه وآله فاعلية، تحولت الى زمن مملوء بالخلق والأحداث، وفارسها الطاهر أعلن بكل وضوح، بأنه نبي ليس لحظة اتصاله بالوحي وحسب، بل في كل تصرفاته وأعماله وأقواله. وقد طرح نفسه الزاكية قدوة، تترجم إرادة السماء في كل ما يتصل بشؤون الحياة ﴿لقد كان لكم في رسول أسوة حسنة لمن يرجو الله واليوم الآخر﴾، والنبوة الموهومة التي هي من وحي الذات ... التي هي مجرد إشراقة صوفية مفاجئة ...هذا النوع من النبوات عرضة للانكسار والتصدع في مواجهة القدر الجبار، الذي قد يلتف على الحدث بمفارقات لم تكن في الحسبان، فيما تجاوزت النبوة المحمدية الزمن لتستوعب حركته، وتخطت كل عوائق التحقق من الدعوى.

النبوة من وحي الذات عرضة للتأرجح في المكانة، وعرضـــة للانـــهيار في الرتبة، ممكنة في كل زمان ومكان، فلا بد ان يتوفر - في يـوم مـن الأيـام - رقم يزاحمها ويتخطاها، مع حالة أشد نقاوة، وأكثر التهاباً بالقيم والـروح والمعنى، فيما أسدلت النبوة المحمدية الستار على ظاهرة الوحـي، وأرسـت قطيعة نهائية بينه وبين حظه من العودة، لأداء دوره المعهود من جديد. إنها ليست جُرأة بل حقيقة، وليست مغامرة بل إمضاءً صادراً من رب الســماء والأرض.هذا، وان محمداً لم يكن بالسذاجة التي يتصور بــها أن المسـتقبل مغلق، وان التاريخ سوف يعدم الممكن من بعده، فالحياة ثريـة بالممكنـات، ومن علائم المسيرة البشرية أنَّ لاحقها يتجـاوز سـابقها، وهـاهو العطـاء البشري يصنع العجائب، فما ينجزه في ساعة من هذه الأيام يعادل سنوات في سالف الأزمان، ومحمد محيط بهذه المعادلة، ويفقـه أطرافـها المتحركـة جيداً، وعليه، لم ينطلق من وحي الذات، وانما من وحـي حقيقـة خارجيـة، تملك ناصية الوجود، وبهدىً من فيضها الذي لا ينضب، أعلن بيانه الأول، وسار على الدرب، ولم يلتفت الى الوراء أبداً.

التأمل الذاتي قد يقود الإنسان الى اكتشاف الله عز وجـل قـوة مهيمنـة على هذا الوجود، قد يفجر في الضمير الإنساني بعض الحقائق الميتافيزيقية عن الكون والحياة، ولكن ليس بهذا التفصيل، الذي مـا زال يشـغل العقـل تفسيراً وبياناً، حتى تعددت الـرؤى والمـدارس والاتجاهـات في تشـخيص معانيه ومراميه، وكل محاولة لتفسير الكتاب الكريم، تنطلـق مـن الاعتقـاد بان السابقين قد فاتهم الكثير!

التأمل الذاتي ينسج المعادلات الميتافيزيقية المجردة، فيمـا الله في القـرآن

ليس وجوداً مجرداً، كما تأمله ارسطو او ديكارت او هيجل او أي فيلسوف آخر، بل هو الوجود الحق الذي له الأسماء الحسنى كلها ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾، ومن ثم هو المشرع! المفروض الطاعة، وهو الذي يحدد مضمون وإطار هذه الطاعة. فهناك لغة الأمر والنهي وليس فقط لغة الوصف العام.ان القرآن كتاب عمل وممارسة حية مسؤولة، وطالما يذم الخيال والفكر المجرد.

ان أصحاب هذه الإدعاء الهابط يركزون على مرحلة غار حراء، ولكن من حقنا ان نسأل، عن مقدار إحاطتنا بحالات محمد، وهو يتحنث في هذا المكان، فإن جهلنا المطلق بهذه الحقيقة، فلا يسمح لنا أبداً بهذا الاستنتاج؛ لأن مقدماته مجهولة لدينا ولدى غيرنا، فكيف نخرج بهذه النتيجة الخطيرة؟ حقاً انه استنتاج يتيم، وليس من شك في ان مجرد الظنون والتصورات المتخيلة، لا تفي بتقرير النتائج، التي من حقها علينا التسليم والإيمان، خاصة في مثل هذه القضايا المصيرية.

فليس من المنطق العلمي، ان ندعي ان القرآن حصيلة تأمل،كان يمارسه محمد في غار حراء، ما دمنا نجهل تماماً هوية هذا التأمل.

(٥)
الصلاة أولا... ما هي الدلالة؟!

كان أول ما أفترض الله على الرسول الكريم بعد لحظة الوحي هو الصلاة. والصلاة في الدين الإسلامي ليست ملهاة روحية، أو تأملات صوفي في عالم من أوهام الروح المجردة، ولا هي ممارسة موقوتة بضمير مأسور بالحاجات الطارئة. وقد أساء كثير منهم وهو يصبغها بطابع المردود المادي،وكأنه يُحسن صُنعاً ... الصلاة في دين محمد بن عبدالله مسؤولية شخصية عقائدية عميقة، تربط بين الحياة والغاية على نحو حاصر، لا يقبل الاستثناء او التبديل او التغيير ﴿ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾، ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾، ولا توجد كالصلاة الإسلامية، تجسد الانقطاع الكلي لله سبحانه، من الشهادة الى التسليم،ولم نعهد كالصلاة الإسلامية،كائناً حضارياً متكاملاً، يتولى تنظيم حياة الإنسان في سياق من التفاعل الخلاق والمؤسس بين الكينونة الذاتية والصيرورة الخارجية ﴿ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

كانت الصلاة الخالصة لله ....الصلاة المنزهة من كل شائبة خارجة عن هوية العبودية المطلقة للحق عزّ وجل ... كانت هذه الصلاة أول ما أفترضه

الله على النبي الكريم...ففي حديث بريدة الاسلمي وغيره (أُوحي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء).

ماذا نفهم من هوية هذه الصلاة، ومن هذا التوقيت المدهش، ونحن نمعن النظر في حياة الرسول الكريم؟ ماذا نستنتج من طبيعة الصلاة الإسلامية،ومن موقعها الزمني المتقدم على كل موقف وعلى كل حدث، في مسيرة الوحي الطويلة والمتشعبة، حتى إنها استوعبت كل جزئيات الحياة؟ماذا يتبادر الى الذهن الصافي، وهو يربط ربطاً مصيرياً وغائياً، بين هذه الصلاة الخالصة لله تماماً، وبين مشروع الوحي بكل جذوره وفروعه؟ بين هذه الصلاة المجرّدة للحق وحده، وبين ابتداء الزمن الإسلامي، بكل ما يحويه من تفاصيل أدهشت أهل الفكر والقانون والفن والعلم؟

هناك جواب واحد لا غير، إنها أصالة النبوة. فمحمد لا يترجم هنا شخصه المحض، وانما ينقل شيئاً أُضيف إليه من خارج ذاته، هناك حقيقة بقدر ما هي تلح عليه من الداخل، لها وجودها الموضوعي الواضح في الخارج، وهي أقوى منه، تُملي عليه، وكان لنفسه من الصفاء ما يُمكِّنها من استلام هذا الإملاء بكل راحة واطمئنان. ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾.

اشتراع الصلاة بهذه المواصفات الرائعة، ليست من مستحقات النبوة الموهومة، بل هي من مستحقات النبوة الأصيلة ... النبوة الحقيقية ... ولو فتشنا عن موقع محمد في هذه الصلاة لوجدنا محمداً العبد ... عبدالله عزَّ

وجل ... فهو يشهد على نفسه في تضاعيف الصلاة بأنه:عبده ورسوله، وكل المصلين يشهدون على ذلك أيضاً (وأشهد أن محمداً عبده و رسوله). و كان في صلاته أكثر الناس خشوعاً.

فهل هي نبوة موهومة؟

أم هي النبوة الواثقة من رسالتها ومهمتها؟

النبوة التي تستند الى الوهم، لا تستوي على هذا النسق من التعاطي المنسجم، يعتريها التناقض والاغتراب والغموض.

(٦)
أولوية المسجد... هي الأُخرى دلالة

يقول التاريخ:

(قال ابن هشام: قال ابن اسحق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمر بن عوف يوم الاثنين ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجداً).

(وكان مربد ناقته مربداً للتمر ـ وذلك بعد أن حل في المدينة ـ ليتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فدعا بهما، وكان جالساً في دار أبي أيوب، وساومهما على المربد، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله ... ثم بنى فيه مسجداً وسقّفه بالجريد ...).

هاهو محمد يدخل (قبا) بعد رحلة شاقة مضنية، محفوفة بالمخاطر والمخاوف التي تهدد حياته كلها، فماذا عساه يفعل في اللحظة الأولى؟

يبني مسجداً!

وهاهو محمد يشرّف المدينة الكريمة بعد رحلة لا تقل شقاءً عن سابقتها، وإن كان شقاءً من نوع آخر، فماذا عساه أن يفعل في اللحظة الأولى؟

يبني مسجداً!

كل إنسان يطرح نفسه من خلال امتداد معين في العالم الخارجي، وهذا الامتداد انعكاس لشاكلة ذاتية، تبلورت بفعل عوامل معقدة ومتشابكة، وطالما يستحوذ على هذه الشاكلة اتجاه واحد. إذا لم يكن ذلك الى حد الاستيعاب الكامل، فإنه على مستوىً عالٍ من النفاذ والإحاطة. فالتاجر - مثلاً - يطرح ذاته من خلال ممارساته وأنشطته في عالم الأسواق ومضاربات الأسعار وأخبار السلع ، وإذا ما تعرضت تجارته لآفة او خسارة فادحة، فسوف يسعى لاستعادة امتداده هذا؛ لأنه تطبَّع على هذا اللون من إثبات الذات والوجود، وبمقدار ما يكون ذلك طمعاً وحباً في الثروة والمال و الجاه، يكون استجابة لهوية استهوت عقله ومزاجه وتفكيره. لقد تحولت الى منق في سلوكه وحياته، فقد اجتمعت كل هذه البنيات وتفاعلت لتتحول الى طابع او شاكلة او صبغة. ولو افترضنا أنه سافر الى بلد آخر، وفكر في الإقامة والاستقرار، فإنه سوف يتعامل في جزء كبير من تساؤلاته وأهدافه وتطلعاته في المكان الجديد، بوحي من تلك الشاكلة او الطابع او الصبغة!

قال الله تبارك وتعالى:﴿كلّ يعمل على شاكلته﴾.

النبوة كانت هي الشاكلة التي جسّدت الذات بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي تشكل جوهر أفكاره واتجاهاته وحواسه و مشاعره. كانت النبوة النقطة المركزية التي استقطبت أوتار روحه، ضبطت إيقاعات كل أنفاسه الشريفة، وبالتالي، لابد أن يتطابق امتداده في الخارج مع إشعاعات هذه النقطة المركزية. لا بد أن يكون هناك تداخل وتواصل بين نقطة التوجه الذاتية وبين مديات الواقع الخارجي.

إنه المسجد!

ترى ما هي الدلالة؟

قد يوحي الإجراء بدلالة اجتماعية تفرضها ضرورة النظم الجديد، فالمسجد سيكون بؤرة تركيز وتفصيل لكل ما يخص الوضع الذي خلقته عملية الهجرة، أو هي تقاليد العرب من كرم وضيافة وسمر، الأمر الذي يستدعي مثل هذا المكان؛ لأن المكان حاجة ترقى الى مستوى الضرورة، خاصة في مثل هذه الأحوال، او ان الجماعة الجديدة ظاهرة اجتماعية حية، سيكون لها مشاكلها وطموحاتها وأهدافها، وأن تبادل الرأي والتشاور في القرار ومعالجة الأمور بروح جماعية، حقائق لا مناص من العمل بها، وبالتالي، يكون المكان استدعاء إجرائيا طبيعياً، أو أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أعد المكان سلفاً لإعداد جيش المستقبل.

في الواقع: كل هذه الدلالات ممكنة وقد تكون صحيحة، ولكنها لا تمثل مرتبة الدافع المؤسس، أي هي دلالات عَرَضية، تأتي كمستحقات ثانوية مترتبة على شاغلٍ يتصل بأفق أرفع وأسمى، موطنه العقل والقلب، ذلك أن المسجد أُسس أولاً وقبل كل شيء لأداء فريضة الصلاة!!

نعم، الصلاة، فهو مسجد، مشتق من الفعل "سجد" كما هو معروف، وليس بيت ضيافة أو إدارة أزمات أو معسكر تدريب ...

أنه مسجد في الدرجة الأولى، وبذلك تتبدى أصالة الدين في هذا الأجراء الكبير، وبالتالي أصالة النبوة في ضمير محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إن بناء مسجد كأول بادرة تجري على يد محمد ـ في زمن الحرية النسبية والمُكنة المحدودة ـ ليس لها إلا دلالة واحدة، دلالة مركزية

مؤسسة، دلالة تعكس الشاكلة المتغلغلة في أعماق محمد، دلالة تترجم الصبغة التي استوت على روحه بالكامل.

لم تكن هذه الشاكلة أو الصبغة أو الهوية هي التجارة او الأمارة او النزعة العسكرية او الوجاهة ... بل هي النبوة ... النبوة وحدها ... فاندفع بهديها الصافي، وبتوجيه من وحيها النظيف، ليبني مسجداً، دونما مشاورة أحد، وبلا أي تردد، ومن دون أي فاصل زمني...كان أول إنجاز له صلى الله عليه وآله وهو يحط في (قبا) ومن ثم في المدينة ... وكانت العبادة في هذا الإنجاز السابق على غيره قد تجسّدت في (الصلاة)، والصلاة عبادة خالصة لله وحده، وبهذا تتناسج وتترافد علائم أصالة النبوة في ضمير محمد و وجدانه.

تُرى أي خاطرة سوف تطرأ على ذهن (محمد) لو كان - في الدرجة الأولى - تاجراً أو محارباً أو مصلحاً اجتماعياً أو حرفياً أو شاعراً أو خطيباً أو زعيماً قبلياً أو نبياً وهمياً ...من الطبيعي أن يكون مشروع المسجد بمعناه الذي طرحه ونفذه رسول الله، كبادرة أولى، وهم ثقيل سابق على كل الهموم - وما أكثرها - وغاية تجذب طاقة العقل و طاقة الجسم ...من الطبيعي أن تكون هذه الفكرة غريبة، وقد تكون مستهجنة، لا معنى لها ...، وإذ كانت الفكرة التي سوف تظفر بمركز الاهتمام هو (المكان)، فهو كمأوىً أو ملجأ أو ملتقىً، وليس مسجداً، تشخص فيه (الصلاة) فرضاً عبادياً أقصى، فإن هذا الموقف، يحتاج الى شاكلة من نوعٍ آخر، انغمس جذرها في القلب، شاكلة متصلة بالغيب، أنشأها الحق، ورعاها بالتعهد الطيب والسقاء الممهِد، منه تستمد القرار والأمل، فمحمد بهذا العمل الجبار

طرح ذاته النبوية، ولم يطرح ذاته المجردة.

إن أصالة العبادة التي تكشف عن أصالة النبوة، تتعــزز بــهذا الاهتمــام البالغ، الذي أبداه رسول الله في بناء المسجد، فلم يكن عبــارة عــن رغبــة،إذ تجاوز كل دواعي التأجيل، وتحول الى مدخل نظمي في تاريخ الإســلام، ولا نبالغ إذا قلنا،ان هذا المسجد تــولى مسـؤولية تأسـيس الزمــن الإســلامي بأروع تفاصيله، فهو ليس على غرار المقــرات او المضــايف او القصــور او الملاجئ أو المعابد والمحاريب الأُخرى، ﴿إن المساجد لله فــلا تدعـوا مــع الله أحداً ...﴾.

يقول التاريخ: (وتولى ـ الرسول ـ بناء المسجد ـ في المدينة ـ هو بنفســه وأصحابه من المهاجرين والأنصار)

ويقول أيضاً: (روى الطبراني عن الشموس بنت النعمان قــالت: نظـرت الى رسول الله حين قــدم وأســس مســجد قبــاء، فرأيتــه يــأخذ الحجــر أو الصخرة حتى نتبعه، فيأتي الرجل من أصحابه فيقول: يا رسول الله بــأبي أنت وأمي أكفيك، فيقول: لا حتى أؤسسه).

(٧)
عبده ورسوله

هذا هو محمد يدعي النبوة!

اذن، لابد ان يكون هذا الإنسان أعرف الناس بالله تبارك وتعالى، ومن ثم، أكثرهم تعبداً له، أي أكثرهم شعوراً بأنه عبد بين يدي الله الذي أرسله هدىً للناس.

هل جاء الواقع مؤيداً لهذه الدعوى الكبيرة؟

(عبده ورسوله ...).

ان هذا التركيب يشيّد علاقة متكافئة بين النبوة من جهة، وبين أرقى معرفة ممكنة بالله من جهة أُخرى، فإن تقديم رسم العبودية على منزلة النبوة في هذا التعريف أو التقييم، ليس لإغراض بلاغية كما يتصور الكثيرون، ولم يكن نزولاً لأحكام التسلسل المنطقي في تصنيف الأفكار والتصورات. إن المسألة مشتقة تماماً من هوية النبوة الموضوعية، النبوة الواثقة من منطقها الصلب، فإن محمداً كان يستشعر من أعماقه بأنه عبد لله أكثر من أي إنسان آخر، وهذا الشعور يتطابق بكل جزيئاته مع النبوة الصادقة، ومن الضروري ان ندرك نقطة جوهرية هنا، وهي أن هذا

الشعور بقي متواصلاً في حياة محمد طوال عمره الشريف، يمكننا أن نلمس بمليء الحس والإعجاب تصاعد وتيرة العبادة، تبعاً لتوالي الإيغال في أعماق المهمة النبوية، و تتابع الإبحار في عالمها الصعب.

ولعل من مصاديق ذلك، ما تعارف عليه الخطاب الإسلامي، من سرد مئات الأمثلة على أخلاق الرسول الرائعة في كل مراحل حياته الشريفة، وهو سرد لا يعجبني؛ لأنه يقوم على فكرة المثال وليس على فكرة الاتصال، حيث يتوفر من خلال هذا النظم المستمر شاهدُ النبوة الصادقة، فمن علائمها القوية أولوية الخُلق الرفيع الدائم - واركز على الكلمة الأخيرة- في كل موقف، ونتحدى أي باحث،أن يضع يده على أي مفارقة في هذا المجال من حياة نبينا، منذ الصبا حتى التكليف بالنبوة، والى أن منّ الله عليه بالنصر المؤزر. قال الله تعالى يصف نبيه الحبيب ﴿وإنك لعلى خُلق عظيم﴾.

إن هذه الشهادة لا تفيد دوراً كما قد يتوهم البعض؛ لأنها مدعومة سلفاً بشهادة أعدائه على الإطلاق، ويكفي انه كان يُدعى بالصادق الأمين، ولو كانت هناك أدنى مفارقة بحق هذا الثناء الرباني، لشاع على ألسنة هؤلاء الأعداء، لأن هذه المفارقة ستكون طعناً في القرآن ذاته، فضلاً عن كونها طعناً بشخص الرسول، خاصة وان هؤلاء الأعداء قد تفوقوا في حرب اللسان على حرب السنان، وقد اتهموه بالجنون والسحر والانتحال، ولكنهم لم يتعرضوا لسلوكه الأخلاقي على الإطلاق، و للعلم ان محمداً هو الوحيد الذي نعته الله بهذا الوسام الرائع ﴿عبده ورسوله...﴾.

هذه المعادلة ليست من استنبات أدب التواضع، ولا هي مناورة خفية

لاستدراج التصديق، بل ذلك ما يقتضيه قانون النبوة الواثقة من إعلانها، التي تملك على الدوام شهادة الواقع الميسور على أصالتها، وإذ كان للإنسان عقل يحترم الحقيقة، فإنه سيجعل من مصاديق (عبده...) دلالة واضحة على صدق الطرف الثاني بلا فاصل؛ لأن تلك المصاديق طبعت حياة هذا النبي دونما أي مفارقة بشهادة الحس،والسلوك الأخلاقي بعض معالم هذه الشهادة. قال الله تبارك وتعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

جاء في الرواية عن أهل البيت:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على أصابع رجليه حتى تورم فأنزل الله تبارك وتعالى:طه.

وجاء في الأثر انه لما نزل على رسول الله: يا أيها المزمل، قام الليل كله حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رجلاً ويضع رجلاً، فهبط عليه جبرائيل بسورة طه.

ان هذه الصيغة من العبودية لله جلّ وعلا، إنما هي دليل قاطع على أصالة النبوة في وجدان محمد ... في عقله ... في إرادته ... فالذي يحوز على هذا الشرف الرفيع، يحس من الأعماق بأنه عبد لله بكل وجوده، وقد استمر محمد عبداً مخلصاً لله تعالى، رغم أنه ملك بيده أسباب القوة المادية القاهرة، بل ومسك بين أصابعه على ضمير الإنسان من الداخل، فلم يعد بحاجة الى أي سلطان لكي يبرر خروجه على هذا التركيب، حيث يقلب المعادلة تماماً، فيكون الإنسان الذاتي المتسلط على الرقاب، الحائز على ملك الدنيا، ولكن أصالة النبوة هي التي غذت التركيب المذكور بأسباب الاستمرار والثبات والتطور، بل ان دراسات السيرة النبوية أثبتت ان

انشغال محمد بالعبادة الخاصة وهو في المدينة، كان أكثر منه وهو في مكـة!
رغم تزايد المهمات و رغم اتصاله بأسباب القوة والمادة والمنعة!

ماذا لو كانت نبوة محمد من وحي الذات؟

ماذا لو كانت نبوة مقصودة باتجاه غرض دنيوي ما؟

ماذا لو كانت نبوة ذرائعية؟

ماذا لو كانت نبوة زائفة والعياذ بالله؟

ان كل هذه الأُطر من النبوات الموهومة ومـا هـو علـى شـاكلتها تخلـق عبودية هشة، عبودية مفضوحة بزيفها وهُزالها، عبودية لا تليـق بإنسـان يعرف الله حق معرفته، فإنها ستنتهي بالتناقض والتصدع آجلاً أم عـاجلاً، وقد تنتهي الى نفي النبوة ذاتها، فالنبي قد يتحول الى ابن الله أو شـريكه أو منازعه، أو وريثه ...

ان نبوات من هذا الطراز، لا تفـرز اسـتحقاقات العبوديـة الكاملـة، ولا تتحمل مسؤولية التكليف الشاق، وإذا كـان لهـا مثـل هـذا الشـأن، فعلـى مسافات قصيرة من الزمن، ومستوى محدود من طاقة الجسم والروح.

﴿عبده ورسوله ...﴾.

لم يستوف هذا التركيب الفذ كـل عنـاصره المكوِّنـة، فـان هنـاك نقطـة جوهرية تدخل في إطاره العـام، انـها الشـجاعة المطلقـة في المجـال المطلـق للتاريخ.

أجل ....فبقدر إحساسه الكامل بالعبودية لله سبحانه، كـان في منتـهى القوة والصلابة في مواجهة إعصار الذات، وجبروت الواقع المضـاد، وحقـد القيم البالية، واغراءات المساومين، عروض الدنيا بكل مباهجها الساحرة.

يقول التاريخ: ان قريشاً أرسلت الى محمد من يفاوضه، ذلك هو عتبة بن ربيعة لرصانته ورزانته، وقد وكلوه بان يساومه على ترك هذا الأمر لقاء كل ما يريد (إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وان كنت تريد شرفاً، سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وان كنت تريد ملكاً ملَّكناك علينا، وان كان هذا الأمر يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ).

هذه العروض كانت هي اللغة التي تعادل معنى الحياة في ذلك الزمان، وفي هذا الزمان، المُلك والمال والنساء والجاه والقوة والسيادة المادية والمعنوية. و كان بإمكان محمد أن يقبل با لعرض مؤقتاً ليستعين به بعد استحكامه على إعلان (نبوته)، فأن ما استجمعه من أسباب قد يكون كفيلاً بتسهيل المهمة، ولكنه ليس منطق النبوات الحقيقية، لانها لا تعرف غير الله مصدراً للقوة والأمل، ولأن ما جاءت به هذه النبوات ليس اجتهاداً شخصياً، بل هو تكليف محدد المضمون والوسيلة، وهذا ما نستشفه من جواب محمد.

كان جوابه قوله تعالى ﴿حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قراناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً،، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنَّة مما تدعونا أليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فأعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إلهٌ واحد فاستقيموا أليه واستغفروه، وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ...﴾.

إنه جواب النبوة وليس جواب محمد القرشي، بكل وضوح نكتشف أن

أصالة النبوة هي التي حددت الموقف.

إن النبوة المصطنعة لا ترقى الى مثل هذه المواقف الحاسمة، لا تصمد هذا الصمود المطلق لإغراءات، من شأنها تمليك كل ما يستدعي من جهد وعمل ومثابرة وسعي، في سالف الدنيا و حاضرها، ولا تحولُ دون استمراء نوازع الذات على هذا المستوى القاطع، وقد بُذلت لها كل ممكنات الانبساط على الواقع، حيث قد تتوالد الممكنات دون ان يحدها سقف معلوم، وذلك إما بحكم العقل وإما بحكم الخيال وإما بكليهما معاً، ولا تقاوم جبروت القيم الجافة لمدة ثلاث و عشرين سنة باتساق منتظم، اتسم بالنظافة والعفة والجمال، يعاني المكابر أي معاناة، كي يظفر بثغرة مخلة،في وحدة من وحداته او دلالة من دلالاته، ولو على نحو التأويل البعيد،ظاهرة أو خفية، فعلى أقل التقادير أن للنسيان حظه الجوهري من تركيب الطبيعة البشرية ...وما ذلك الاّ لسبب واحد ولكنه خطير، إنها ليست نبوة زائفة أو مصطنعة.

إن جبروت التاريخ يصرع النبوة المصطنعة، حتى إذا اخترعها صاحبها لأغراض إنسانية، حتى إذا كانت على ملامسة بريئة من الأسباب والأهداف؛ لأن الاصطناع لا يستقيم مع حركة الزمن، لا بد ان يستسلم لضغط الحياة الحقيقية، فيما تواضع التاريخ بكل جبروته لمحمد.

إن الاصطناع قيمة مستهلكة من داخلها، سواء كان إطاراً أو محتوى، وسيلة أو غاية، سرعان ما يُفصح عن خوائه الذي قام عليه،مهما كانت الدوافع والأسباب.

النبوة المصطنعة حتى إذا كانت لأغراض جميلة، تكون قلقة في اتخاذ

المواقف، تماماً مثل الإيمان الـذي تحكمـه المعايـير النفعيـة، لا تملـك قـوة التحكم من داخلها، ولابد للواقع ان يجبرها في لحظة ما على مسـايرته، لان الاصطناع بحد ذاته هش.

لقد كانت ثقة محمد بنبوته نقطة وسطاً، تنظم علاقتـه بـالله مـن طـرف، وبالآخر من طرف ثاني. هناك تتجلى العبودية الراسخة، وهنا تتجلى القـوة الهائلة، في إمضائها الأول عبودية واعية مدركـة، وفي إمضائـها الثـاني قـوة هادية نيرة، في الترسم المتقـدم طاعـة شـاملة عـن فـهم وحـي وإيمـان، وفي الترسم المتأخر تحرر من كل ضاغط، يتقاطع مع القيم الحرة،حيث ضـرورة الحسم في مواجهة نوازع الذات، وشهوة الجسـم، وإيحـاء المنزلـة، وغـرور القوة، وإغراء المجتمع، وسطوة التقاليد، واحتيال المرونة، وعيوب المماراة.

ان النبوة الصادقة تفـرز هذيـن المقـتربين علـى جهتيـها، بلغـة عاليـة ومنسوب متصاعد القيمة.

(٨)

فاعلية العقيدة

لماذا لا نعتبر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مجرد مصلح اجتماعي؟

ألم يطرح نظاماً جديداً، يستأصل فيه تلك العادات البالية والتقاليد الرثة والسلوكيات القائمة على العصبية والعنصرية والطبقية؟

ألم يقنن تلك المعادلات الاقتصادية، التي من شأنها، رفع الحيف والظلم،وتحجيم الفوارق الطبقية الى حد كبير جداً؟

ألم يؤسس قواعد جنائية استطاعت بكفاءة موضوعية ضبط السلوك الاجتماعي والفردي والعائلي، وفق أنساق مبدعة من تبادل الثقة والاطمئنان؟

ألم يرسِ مبدأ الشورى؟

وماذا بعد؟

كان من الصعب أن يأخذ هذا البرنامج الشمولي طريقه إلي التطبيق في جسم المجتمع الجاهلي، إذا لم تتوفر آلية فاعلة، ومحمد لا يملك القوة التي تمكنه من الوصول الى هذه الغاية، فما العمل إذن في مثل هذه الحالة؟

هنا يأتي موضوع العقيدة (التوحيد والمعاد)... فمحمد صلى الله عليه

وآله، اخترع هذا المركب الجميل، ليتحقق الحافز الداخلي للاستجابة، فإن ذلك يغنيه عن اللجوء الى القوة، ويوفر عليه الكثير من المتاعب والمضاعفات التي هو في غنىً عنها، لقد أراد هذا الإنسان الطيب أن يخلق باعثاً وجدانياً، فكانت هذه العقيدة!

في ضوء هذا التفسير يكون النظام الاجتماعي هو الهدف، هو الجوهر، هو المقصود، والمركب العقائدي مجرد اختراع إجرائي لا أكثر ولا أقل، وبالتالي، تتهاوى النبوة تماماً!

السؤال المطروح هنا:

ما هو موقع العقيدة من الأطروحة الإسلامية كلها؟

ان الجانب العقائدي في الإسلام يحظى بتفصيل مدهش، سواء على صعيد التوحيد أم النبوة أم المعاد، والعقيدة هي البداية وهي النهاية، فقد ربط الإسلام المصير الدنيوي بالآخرة ربطاً مصيرياً،ولم يربطها بالنظام الاجتماعي الذي جاء به، بل ان الناظر المحايد يمكنه أن يكتشف علائق عضوية بين روح العقيدة وهوية النظام.

ان النظام الاجتماعي الذي جاء به الدين الإسلامي، يتضاءل في دوره وأهميته وقيمته وغايته، إزاء العقيدة كأساس ومصير وتأسيس، وعندها هل يمكن ان نقيّم العقيدة بأنها مجرد اعتبار؟ مجرد اختراع؟ مجرد آلية؟

لم يطرح القرآن الكريم العقيدة على شكل تصورات، بل شفع ذلك بأدلة وبراهين، ودافع بقوة متناهية عن متبنياته العقيدية في الله والآخرة، وكل المفردات الأخرى التي تتجمع بينهما، والمساحة الأكبر من القرآن الكريم للعقيدة، وليس للنظام الاجتماعي أو للتاريخ أو للأخلاق وللأمثال، ولو

كانت العقيدة مجرد إختراع أجرائي، لما كان لها كل هذه المكانـــة مـن قلـب الإسلام العظيم، ولو استعرضنا حيـــاة رســول الله صلــى الله عليــه وآلــه وسلم، لرأينا بكل وضوح أنه إنســـان عقــائدي قبـل كـل شــيء، ومهامــه الإصلاحية مشتقة من معادلة الإيمان، وإلاّ فما معنى هذا الذوبان المحمدي المتناهي في حب الله؟ ما معنى هذا الخوف الكبير من الله؟ ما معنى هذا الأمل المطلق بالله جل وعلا؟!.

ان الصيغة الإجرائية تكــون هامشــية، فيمــا العقيـدة في الإســلام هــي الجوهر ... الصيغة الإجرائية مؤقتة، بينما العقيدة في الإسلام قد ســـايرت حركة هذا الدين من البداية الى النهايـــة ... الصيغـة الإجرائيـة مختصـرة مجملة،ولكن العقيدة كما يعرضها الكتاب الكريم مفصلة ... فهذا التفســـير غير موضوعي، ويعاني من خلل منطقي داخلي يطيح به من الأساس.

(٩)
الجرأة الكونية

قال الله تبارك وتعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.

الآية في جوهرها تنطوي على جرأة هائلة، تتضمن استيعاباً متقادماً للتاريخ حيث يلقي الزمن بكل ثقله في ضمير هذا الاستيعاب المتوثب بالثقة. ان الآية تطرح للإنسان في كل مكان وفي كل زمان المثل السائر الذي يدعي القدرة على ترشيد كل تجربة، وتطعيم كل محاولة بأسباب التوافق مع سنن الحركة والاستمرار، ومن ثم شحنها بقابلية العطاء الثر، انها الجرأة التي تتزود من المصدر الذي يملك قرار الوجود، في جرأة محمد النبي وليس جرأة الانسان المجرد، خاصة ونحن نعلم ان محمداً يدرك بوضوح ان ديمومة الحياة وتقلباتها وملابساتها ومفاجآتها الضخمة، تحطم أكبر إدعاء يحاول استعبادها أو ارتهانها لإمضائه أو فلسفته أو أفكاره، فلماذا يعرض نفسه للنقد الذي يؤول الى إهماله ونسيانه ولو بدرجة ما؟ فيما إذا تحدث بلغة البطل الواعي لمفهوم الزمن، أو العبقري المدرك لمعنى العقل، سينال حظه الوافر من شهادة التاريخ، شهادة لا تقر بموهبته وحسب، بل

تؤكد أصالة وعيه بحقائق الحياة، وإحاطته الفذة بقوانين التاريخ.

ان هذه الجرأة اكبر بكثير من ثقته بنفسه وعشيرته، جرأة تتحدى العزائم والهمم الى الأبد، تشع بالاطمئنان الكامل والثبات والاستقرار، ومن هذه المقتربات، يمكننا ان نستبين عقم الجرأة الفرعونية، ومدى المفارقة فيها، قياساً الى الجرأة النبوية، و اكبر شاهد على ما نقول هو الانهزامية الداخلية التي كان يعاني منها فرعون إزاء موسى عليه السلام، وهو الإنسان الذي لا يملك حولاً ولا قوة، فقد كان فرعون خائفاً مهزوزاً، جرأته ظاهرية هشّة، مهددة بالانهيار، لم تصمد في مواجهة فرد عادي بسيط، وقد حشد كل قواه وإمكاناته من اجل الحفاظ على هذه الجرأة المخذولة، وصيانتها من الانكسار على يد هذا الفرد العادي البسيط.

الآية الكريمة تكشف عن جرأة تنضح بالثقة العالية، بل ان الثقة هوية ذاتية لهذه الجرأة الكونية، لم تكن مستعارة من دخول الناس أفواجاً في هذا الدين كما ادعى بعضهم؛ لأن محمداً كان يعي جيداً ان إسلام الكثير من هذه الأفواج، جاء في سياق الرضا العام،لأسباب خارجة عن دائرة الاعتقاد المؤسَّس على الدليل والإقناع، وقد نوّه القرآن الكريم بهذه الحقيقة **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم﴾**. فهي الجرأة التي استوثقت أحقيتها وصرامتها من الله جلّ وعلا، ولم تستمد عزمها من ذات انسان مجرد، او من هذا الجمع الذي كان يحتشد حوله في حجة الوداع، ولا من مبررات الانتماء العشائري، ولا من مسوغات الجغرافية، فهي تعادل نفسها، و تكافئ ثقلها وحسب.

ولكن ألم يكن ماركس ـ مثلاً ـ جريئاً ايضاً؟

لقد قال الرجل بنهاية حتمية للتاريخ، وفق قواعد و سنن ادعى تطابقها الأزلي مع الواقع، وقد دافع عن هذه الجرأة بحرارة و إخلاص، وكان واثقاً من هذه النهاية ومن قوانينها، فما هو الفارق الجوهري بين الاثنين؟

ان جرأة كارل ماركس وأي عبقري آخر، إنما هي حصيلة فكر ونظر ودراسة ومراجعة، فيما (يدعي) محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان جرأته هذه (مُوحاة) من عند عالم الغيب والشهادة، الأمر الذي يعني احتواءها على مخاطرة كبيرة، مع أبسط مفارقة وفي أي زمان وفي أي مكان، في كل موقف وفي كل ممارسة. وهناك جهود جبارة للبحث عن هذه المفارقة لتكون بمثابة الضربة القاصمة التي تنهي هذه النبوة المدعاة، ان جرأة ماركس أو غيره بمنأىً عن هذا المأزق المتربص،وهذه الخطورة المرعبة، فبإمكانه ان يعالج أي مفارقة، ومن حقه ان يتراجع وان يضيف ويحذف، ويتذرع بالنسيان أو قلة المصادر او نضوب المعلومات او بحكم ضرورة ما؛ لأنه لم يدَّع الوحي، لم يقل إن كتابه لم يأته الباطل من بين يديه أو من خلفه، إن الجرأة تقترب من ماهيتها الأولى ... من فصلها القريب ... من عنوانها الذي ينطبق عليها حقيقةً... إذا كان موضوعها عرضة للتزلزل في حالة أي صدام بأي مفارقة، مهما كانت ضئيلة وتافهة وبسيطة، ودعوى محمد الذي تجسده الآية المذكورة كانت بهذا المستوى من الجرأة، انها محفوفة بالمخاطر، لا يفارقها رعب التساؤل المستمر، ولا ينفك عنها دأب المعاندين في البحث بين السطور، بغية تزييف الدعوى المعصومة، وتُلاحقُها هواجس المؤمنين بهدف مزيد من الاطمئنان، او لرفع إبهام قد تساهم في توليده عوامل محسوبة او طارئة أو كلاهما، وليس من شك، في أن أي

تغيير او حذف في تضاعيفها، يــهوي بــالجرأة وصاحبــها، وتســلخها مــن دعواها الروحية والميتافيزيقيـة، لقـد كـانت جـرأة محمـد لا نظـير لهـا في التاريخ، ولا يوجد أي تفسير لهذه الجرأة، إلا إيمان محمد الذي لا يـتزعزع بنبوته، ان أصالة هذا الأيمان تستنبت هذه الجرأة، وعلى غرارها جرأة كـل الأنبياء الذين ثبت صدقهم على مر التاريخ الإنساني الطويل.

ان إكمال الدين وإتمام النعمة لا يعنيان التكافؤ بين الحقيقــة والإســلام فقط، بل يشيران الى انقطاع الوحي، وختم النبوة وسريان الروح المحمديـة الى الأبد!

أي جرأة هي؟

أي تعليل يفي بتفسير وتبرير هــذه الظـاهرة غـير ثقـة محمـد بنبوتـه الهادية؟

وهي ثقة في محلها، تلقاها محمد من خارج ذاته، وليس من داخل ذاته، كانت ثقة مستمرة وليست متقطعة، لقد كان على علاقة مباشرة مع حقيقة خارجية، تتصاعد وتيرتها مع الأحداث والوقائع، دائماً وباستمرار، لم تهدأ أبداً ... كان مع الله.

(١٠)
التحدي الدائم

ان ديمومة الحدث برهان قائم على الحدث، لا يمكن إنكاره او نفيه، وليس هناك حدث يدوم مثل الكلمة، الكلمة المكتوبة، ليس لانها حاضرة وحسب، بل هي على استعداد لتقبل الاختبار تلو الاختبار على صدقها وتاريخها وانتمائها، وهي في هذه المجالات اثبت من الآثار المادية المنحوتة من صخر او حديد، إذ يمكننا مع الكلمة المسطرة المقارنة والموازنة لاكتشاف الصحيح من الزائف والأصيل من الدخيل، إذا زيد عليها أو أنقص منها،وان العودة فيها الى الجذور والأوليات اسهل بكثير من الآثار المنصوبة، بعد تعرضها لصروف الزمن وتزييف التاريخ، كما ان الكلمة تملك طاقة الذيوع والشيوع، و قابلية الانتقال من جيل الى جيل، فكيف إذا كان للكلمة حق الحفظ في الصدور لأي سبب كان؟ وكيف إذا كانت الكلمة قد استقرت في ضمائر مخمورة بسحر اللغة وطلاقة اللسان؟ وكيف إذا كانت الكلمة فعلاً مجسَّداً في سلوك أمة كبيرة من الناس؟ وكيف إذا كانت الكلمة هي محور العقيدة والشريعة والاخلاق وكل شيء في حياة المجتمع الذي ولدت فيه؟

ان من إعجاز النبوة المحمدية ان تكون الكلمة هي معجزتها، بل ان مما ينسجم تمام الانسجام مع فكرة الخاتمية،ان تكون المعجزة الرئيسية

والجوهرية والحاكمة هي الكلمة، لان الكلمة سائرة، يمكن اختبارها في كل زمان ومكان.

ان المعجزة دليل النبوة، والنبوة الخاتمة تستوجب حتماً معجزة من جنس ادعائها، واحياء الميت ـ مثلاً ـ لا يساير التاريخ، حدث يحصل ويمضي، أما الكلمة فتبقى، تنادي بدليلها الملموس، ليس لها زمن مخصوص، والحاجة إليها دائمة، لا يغني عنها شيء، تتصل بالتكوين العقلي والبيولوجي للإنسان.

ان الكلمة المعجزة هي معجزة كونية تاريخية تتسم بالحضور والفاعلية، انها أرقى بمراتب عظيمة من معجزة إحياء الميت لعيسى، واشرف من تحويل العصا الى أفعى حقيقية، واخطر من تحييد فاعلية النار لإبراهيم.

وفي الواقع، لم تكن معجزة نبينا الكلمة لاعتبارات التفوق اللغوي للعرب، أو لان هؤلاء الناس أصحاب ذائقة أدبية رفيعة، وسليقة إنشائية تجمع بين العفوية والعمق والجمال، بل ان معجزته كانت الكلمة، للأسباب التي ذكرناها سابقاً، ان الداعي الحقيقي هو الاستمرارية والخلود والحضور والفاعلية والاستعداد الدائم للتحدي.

ولكن هل كانت الكلمات التي جاء بها محمد معجزة حقاً؟

الجواب، نعم بكل تأكيد، والدليل التحدي الذي ما لبث قائماً منذ أيام النزول الأولى. قال تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**.

وقال تعالى: **﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾**.

وقال تعالى: ﴿إن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله ان كنتم صادقين﴾.

والتحدي ما زال قائماً.

ان الذي يستشفه النظر الدقيق من هذه الآيات الكريمات، ان المعجزة ـ القرآن ـ جاءت في سياق ادعاء الخلود، و ما ذلك، إلاّ لأن نبوة محمد هي المطاف النهائي لحركة النبوة الهادية. ان نبوة محمد بمثابة خلاصة وافية لمسيرة ورسالة ١٢٤٠٠٠ نبي، ولهذا كانت معجزته تنطوي على هذا الادعاء، وما يستتبعه من تحد دائم، وليس مثل الكلمة يمكن ان تجمع بين الخلود والتحدي، ولا نقصد بالخلود هنا الصدى المعنوي، او الذكرى الباقية، او أي تصور آخر،بل الخلود بمعناه المباشر، البقاء الشاخص الذي يمارس التصدي بحضوره الممتلئ.

يبقى ان نعلم أن إحدى سور القرآن الكريم،لم تتجاوز عشر كلمات!تلك هي سورة الكوثر.

(١١)

كل الأنبياء في حاجة الى محمد

محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء، ومن معاني الخاتمية،ان كل الأنبياء السابقين في حاجة إليه، وقد يتبادر الى الذهن، ان هذه الحاجة تتصل بموضوع كمال الشريعة المحمدية، ونقاء العقيدة من الشرك والغلو، وكل أنواع الخرافة التي لحقت الأديان السماوية، حيث انحرفت بها عن هويتها الصافية وأهدافها السامية، وليس من شك في ان لهذا التصور شيئاً من الواقعية، ولكن ما نقصده أساساً اكثر عمقاً، واخطر دلالة، انه يتعلق بالأنبياء بالذات، من حيث وجودهم، وعلى مستوى سيرتهم، وفي خصوص نبوتهم، و فيما يتصل بكتبهم،وفي مجال معجزاتهم!

كيف يمكن الأيمان بنبوة عيسى ـ مثلاً ـ وهناك من يشكك تاريخياً بوجود هذه الشخصية العظيمة؟

وهل ينقذ هذا الوجود من الشك مجموعة الأناجيل الموجودة بين أيدينا اليوم؟

هذه الأناجيل قيل ـ وهو حق ومبَّرر علمياً وعقلياً ـ الكثير عن تأريخها وعن تناقضاتها وعن أعدادها،فضلاً عن بعض أفكارها، التي يرفض العقل ان تكون وحياً إلهيا صادقاً. هناك فوضى تاريخية وفكرية ونفسية في

خصوص هذه الأناجيل، ثم ما أسهل الكتابة على غرارها بل واحسن منها، وفي الأدب العالمي ما يتجاوز روحانيتَها وأسلوبَها أشواطاً كبيرة في المعـنـي والعمق والتأثير، وقـد تعرضـت وتتعـرّض لنقـد حـاد ومعقـول، والفكـر الكنسي في حيرة من الرد على فضيحة هذه الأناجيل، وبـين فـترة وأخـرى يخرج علينا هذا الفكر بمحاولة إنقاذ ولكن دون جـدوى، ولـذا، لا تنـهض هذه الأناجيل بأي دليل على وجود هـؤلاء الأنبيـاء وعلـى نبوتـهم، وهـي تفتقد الى التواتر العلمي الدقيق، وربما كل هذه المفارقات او بعضـها، هـي التي آلت الى هذا الطلاق الزمني بين المسيحية كدين، وبين المسـيحيين علـى انتشارهم في مشارق الأرض ومغاربها، فليس سـراً أن المسـيحية كعقيـدة تكاد ان تكون منسية، وهي خلو من الشريعة، والاخلاق التي تدعـو إليـها تتصف بالسلبية والخمول، وتُصاب أمم العالم المسيحي بـالرعب، مـن أي حديث عن ضرورة العودة الى الدين، وإذا كان هناك انتماء، فـهو سياسـي تاريخي فقط!

ان كل معجزة من معاجز هؤلاء الأنبياء عبـارة عـن ادعـاء وحسـب، لا يوجد أي شاهد حسي عليها، وسلسلة الاتصال إليها مقطوعـة، ولا سـبيل الى إثباتها أبداً، وإذا كان بالإمكان تحصيل نوع من الدليل التـاريخي علـى وجود إبراهيم او موسى او أيوب، فإن ذلك لا يدل بالضرورة على نبوتهم او معجزاتهم.

كيف يمكن لإنسان ان يؤمن بهذه النبوات في مثل هذه الفوضى؟

ان السبيل الوحيد للتصديق بهؤلاء الأنبياء هو القـرآن الكريـم وحـده، لأنه المعجزة الوحيدة التي تملك دليل الحضور الفعلي، انـه المعجـزة الـتي نتعامل معها يومياً، نراها ونسـمعها ونقرؤهـا، نتدارسـها ونتنـاقش بـها

وفيها وعنها، في متناول كل يد، يسيرة الحضور والاستجابة لكل سؤال او استفهام، بلا شرط مسبق او اذن تعجيزي، نعايشها في كل لحظة وجوداً وتحدياً واستمراراً، معجزة سائرة لأنها تتحدى باستمرار.

في ضوء هذه الحقائق يمكننا ان نقول وبكل اطمئنان، ان كل الأنبياء في حاجة الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خاصة على صعيد إثبات نبوتهم ومعاجزهم، فيما نبينا ليس في حاجة كبيرة او صغيرة لأي من هؤلاء الكرام.

ان النبي محمد بن عبدالله هو النبي الوحيد، الذي نحيط بحياته إحاطة واسعة وعميقة، تكاد تكون شاملة، يقول بذلك المؤمنون والجاحدون، وقد كُتبت سيرته الشريفة بالتفصيل، على ضوء أدق المقاييس النقدية، ولذا، لم يعانِ المسلم من أي مشكلة وهو يريد الاهتداء بسيرة نبيه الكريم،في أي مجال من المجالات، وذلك بنسبة عالية من الشمولية والاطمئنان، و ليس من شك أن من ضرورات النبوة الخاتمة هذا الوضوح بالسيرة، انها جزء لا يتجزأ من هويتها ومهمتها، ان النبوة الخاتمة قدوة كاملة في مديات واسعة من شؤون الحياة، فمن الضروري ان تكون سيرة فارسها واضحة المعالم على مديات واسعة، وهذا ما هو متحقق في شخص محمد بن عبدالله دون غيره، محمد الذي لم تغب عنا حتى صفاته الجسمية ... حتى خصوصيات حياته... حتى شؤونه البيتيَّة!

قال تعالى: ﴿ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

قال تعالى: ﴿لقد كان في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾.

(١٢)
سير ضد المألوف

كانت النبوة هي التي تصمم مواقف الرسول الكريم، كانت تُملي عليه، فهناك مفاصل في مواقفه وسيرته لا تخضع لسنن السيرة المألوفة في طرح الذات والرسالة والدعوة، لا تنسجم مع الظروف والمحيط والأجواء السائدة، تحث على الارتياب والسخرية لدى المعاندين، وتصدم عوامل الجذب وامارات اليقين لدى المؤمنين، وتعمق دواعي الشك والخوف لدى المترددين.

كان أولى ـ طبقاً لطبائع الأمور ـ ان يتعاطى صلى الله عليه وآله وسلم مع قضيته، ليس بنعومة التعامل وصرف الأخلاق وحسب، بل إضافة الى ذلك، بمراعاة مستوى المستمعين،ومعاينة نوع الادعاء، وضرورة الحفاظ على المكسب السابق، وذلك كي يظفر بمزيد من الثقة عند اتباعه، الذين كانوا أصلاً على خطر عظيم ـ إلا من رحم ربي - ويهوِّن ويخفف من غلوا الإنكار الذي كان الطابع السائد، والذي لم تتوفر أي دلالة على اختراقه، ويحيِّد من درجة التردد عند المشككين ... ولكنها أصالة النبوة هي التي تملك القرار الحاكم في ضميره.

لنفترض معدماً مهملاً يدعي الالتقاء يومياً بملك جبار دونما رخصة او استئذان، فإننا ولا ريب، نرتاب بصدق هذا المُدعي، وإذا ما ادعى انه يلاطف هذا الملك، ويشاركه أسراره البيتية الخاصة، ويستمزج رأيه بشؤون مملكته، وان الملك عرض عليه فكرة الزواج من اجمل واعز بناته، ولكنه رفض عزةً ودلالاً، فإننا سنرتاب اكثر، وربما نحكم عليه بالجنون والسفه، بل قد نحكم عليه بذلك فعلاً، لعله لو اكتفى بالدعوى الأولى، وأرجعها الى ضربة من ضربات الحظ، او إلى صدفة عابرة، وحَصَرَها عداً مرة او مرتين ... في مثل هذه الحالات، قد يجد قولُه صدىً من قبول ضعيف عند هذا او ذاك من الناس، ممن يعولون على فلسفة الممكن، ويبنون عليها بعض المواقف، ولكن عندما دخل الحدث المُدعى هذه المستويات الضخمة من المبالغة، وتصاعد سُلَّم الاستغراب في المضمون،فَقَدَ كل مبررات قبوله،لان أسباب الانتصار لأصالته معدومة او ضعيفة جداً.

لقد أنكر الناس نبوة محمد تسع سنوات متتالية ولم يهضموا صلته بالسماء، رغم ما عرف عنه من طهر في القلب والجارحة، ولم يصدقه إلا ثلة قليلة، حتى انها لا تُحسب أقلية بالمصطلح المعروف، وقد أوذي في ذلك، وراح القوم يطاردونه في رزقه و أمنه ومستقره، وتحول الى مثل للسخرية والتهكم والاستهزاء، ومات أعز مساعديه في حياته وصموده وكفاحه، زوجه المخلصة وعمه،و بذلك ضاقت الأرض به وبأصحابه.

هذا هو محمد، وهذه هي ظروفه، وهذه هي ممكناته!

فماذا ينتظر؟

في هذه الظروف حيث أُعدمت كل السبل، وجدب ضمير الاستجابة، وتحجر الموقف الرافض الى حد اتهام محمد بالجنون ... في مثل هذه الظروف الحرجة الحالكة، يعلن محمد بلسان عربي مبين انه أُسري به إلى السماء! يقول تبارك وتعالى ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾، وقال تعالى .....﴿ولقد رآه - يعني جبرائيل - نزلة أُخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

لقد أسري به الى السماء، ليس هذا فقط، بل إضافة الى ذلك رأى ما رأى من آيات الله الكبرى، كان في ضيافة الرحمن، في رعايته، والملائكة في خدمته، يطوفون به أرجاء الكون الفسيح ليستشرف الملكوت وأسراره العظيمة.

كذلك قال محمد!

ولكن في أي ظروف قال؟

في ظروفٍ هو أحوج ما يكون فيها،الى التخفيف من ضغوط التشكيك والإنكار! في ظروف تتطلب مداهنة أجوائها الخانقة، ولو في حدود يسيرة، في ظروف كانت الكلمة فيها للتكتيك وليس للمضمون، فكيف إذا كان المضمون بحجم الإسراء والمعراج؟

يقول التاريخ:ان رسول الله كان جالساً يفكر ملياً بالصدمة التي ستفاجئ الناس وما يمكن ان يترتب على ذلك من معانات مضاعفة، أعلن عن الحدث الجديد، فمر به أبو جهل (فقال كالمستهزئ: هل استفدت شيئاً

في هذه الليلة؟ قال: نعم، أُسري بي الليلة الى بيت المقدس، قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ فقال: نعم ...فقال أبو جهل أتخبر قومك بذلك؟ فقال:نعم، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلمّوا، فأقبلوا، فحدثهم النبي، فمن بين مُصدق ومُكذب ومُصفق وواضع يده على رأسه، وارتد ناس ممَّن كان آمن به وصَدَّقه).

ان محمداً الخارق يدرك حجم العواقب، التي سوف تترتب على هذا الإعلان الميتافيزيقي الخطير، ومن أخطر هذه العواقب المنتظرة، انهيار الثقة به لدى أتباعه، وهم قلة نادرة جداً، وكان قد كسبهم بعد جهاد مرير، دام سنوات طويلة وقاسية، وهو ما حصل فعلاً، كما ان إمكانات التكذيب نالت حظها اكثر من القوة والمتانة، ولكن محمداً النبي مدعو الى الإفصاح. إن أصالة النبوة وثقته بهذه النبوة،لهما أسبقية الحضور والإمضاء، وقد تكلم بلغة مستحكمة، وبعقل راجح وقصد واضح، يجادل وينافح عن هذه القضية، ولم يبال بتساقط بعض المؤمنين، ولم يلتفت الى توافر المزيد من عوامل الاستهانة والاستنكار،ومن السخف بمكان ان نقارن هذا الحدث، بما يشهده التاريخ من إصرار هنا وهناك على رأي او فكرة، رغم المواجهة المكلفة والتي قد تصل ـ أحياناً ـ الى الاستئصال، ذلك ان ادعاء محمد بن عبدالله موضوع خاص وحساس، لا يقاس به أي موضوع آخر، وان الاستحقاقات المعاكسة التي يمكن ان تترشح عن هذا الموقف الجريء، قد تطوح بأُس القضية وجوهر الادعاء، الذي هو النبوة.

ان دعوى محمد في إسرائه ومعراجه كانت بمثابة هزّة عميقة في ضمير

الاتباع من جهة، وإسفينا جديداً وحاداً بين محمد والناس الذين جاء أصلا لهدايتهم ...

فما الداعي أليها اذن؟

لماذا لا يؤجل محمد الإفصاح عن هذا الحدث الكوني المدهش، بعد ان يجمع ويحشد أكبر عدد ممكن من الأنصار؟

لماذا لا يؤخره بعد ان تنتصر نبوته في ضوء إنجازات عملية ملموسة؟ وذلك حتى يكون التعاطي مع الحدث الخارق الجديد بشيء من الارتياح،ومن خلال الارتكان الى أمارات سابقة من شأنها المساعدة على هضم المفاجأة المدهشة.

اذن وبكل وضوح، كانت هناك (النبوة)، أصالتها النابتة في كل ذرة من ذرات إرادته ووجدانه وروحه.

ان أصالة النبوة في المفردة الجديدة، ليس المضمون وحسب، بل في الوعاء الزمني، مع علمِ صاحبها بالنتائج العكسية التي ستؤدي إليها، فيما هو في أشد الحاجة الى الزمن المريح، وفي غاية الحاجة إلى المزيد من الأنصار، وفي أقصى حاجة الى تقريب المهمة الى مستوى الفهم العادي المألوف، ان طرح المفردة بكل هذه المقتربات وغيرها، يهدد النبوة فيما هو يسعى لإثباتها.

ان مسألة جوهرية يجب ان تتقدم على كل اعتبار هنا، انها النبوة، فان تكذيبها بالنسبة لمدعيها، ليس مثل تكذيب رأي علمي او فكرة فلسفية او اتجاه إصلاحي.

(١٣)

وعي الوعي

قال تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلـق الإنسـان مـن علـق، اقـرأ وربُّك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ...﴾.

من الواضح ان الوحي المحمدي أبتُدئ بالقراءة، كفاتحة حضارية بنائية تـهدف الى تغيـير الحيـاة، لأن كلمـة (اقـرأ) هنـا، تتواصـل مضاعفاتـها وإرهاصاتها لتخلق مجالات رحبة من أماناتها الفعلية، وتكرارها عبارة عن مداخل أساسية لعوالم الوجود المتصافة بين الخلق والوعي.

القراءة بطبيعة الحال تتطلب وجود كلمة ما، فـهي لا تنشـأ مـن فـراغ، ويبدو ان الكلمة هنا هي كلام جبرائيل عليه السلام، خاصة ولم يكن هنـاك كتاب، قد عُرض على رسول الله آنذاك (هناك رواية ضعيفة ...).

الواقع ان الكلمة ارتبطت بالأنبياء بوشائج من علائق المسؤولية والهدف والحركة، ونظرة سريعة الى هذا الارتباط تكشف عن تصاعد في المستحقات والإفرازات، التي من شأنها وطبيعتها تحويل الحياة الى ساحة متمكنة مـن ذاتها، وحقيقة قائمة على الأصالة،وتعاملُ الأنبياء مـع الكلمـة، هـو الآخـر ليس على مستوىً واحد، بل هناك طبقات متدرجة من عمق المسؤولية، تبعاً

لتطور الزمن، وتماشياً مع تفاعلات التاريخ، ونريد ان نعرف موقع الكلمة في نبوة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، وذلك في ضوء تأريخها النبوي العريق، فهناك علاقات طولية بين كلمات الأنبياء سلام الله عليهم.

لقد بدأ ت الكلمة مع آدم على مستوى التلقي، الذي يعادل موضوعياً مفهوم التلقين **﴿فتلقىّ أدم من ربه كلمات فتاب عليه ...﴾**، حيث تترجم بداية الفكر الإنساني البسيط، لتتحول الى ابتلاء ضخم في ذمة إبراهيم عليه السلام ... الى مشروع حضاري يهدف للقضاء على فوضى الميول المتخلفة والإرادة الفاسدة **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ...﴾**، وبمرور التجربة تتكرس الكلمة (نداء) استنهاضيًا، في مواجهة اكبر قوة طاغية في ذلك الوقت، ألا وهي الدولة الفرعونية بملكها الجبار **﴿وإذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين﴾**، وبتتابع قيمة الكلمة ودورها، تتحول الى عنوان، يبلور الذات النبوية في عيسى سلام الله عليه، لتؤدي دور الكشف عن زيف البنوة الساذجة **﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم﴾**.

وأخيراً ينتهي المطاف بالكلمة لتكون عبارة عن (وعي الوعي). اقرأ...

هذه هي البداية ... وهي كلمة ...

ولكن هذه الكلمة يجب ان تُقرأ، وسوف تُقرأ فعلاً وأبداً ...

اذن هناك مشروع قراءة القراءة.

﴿أقرا باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

ان ابسط فهم لكلمة (اقرأ) الأولى هو الترديد والتلاوة؛ لأن هذه المستويات من التعامل بدائية، ولا تتناسب مع مهمة (اقرأ) في سياقها الذي نحن فيه، ولعل اندماجها السريع بالعلم والقلم على نحو تصاعدي كمياً وكيفياً، يؤكد القراءة ذات المنحى الجواني، الذي يفجّر في النفس الإنسانية صراعاتها، ويثير في العقل البشري معادلات التفكير ... ان تكرار القراءة مرتين في صيغة الأمر، وتكرار العلم ثلاث مرات، وتموضع القلم وسط هذه الحركة النشطة، يكشف عن مشروع قراءة القراءة، فالقراءة هنا هي المعادل الموضوعي لمفهوم (وعي الوعي)...ان (اقرأ) الأولى و هي تفيض على لسان الوحي، ليلقيها في ضمير محمد صلى الله عليه وآله، إنما هي بداية تشكيل وعي انقلابي جذري، وترديد محمد لهذا الأمر التربوي، إنما هو وعي لهذا الوعي.

الغريب ان تقترن بداية الوحي المحمدي بالقراءة والعلم والقلم، وهو الذي لم يعرف القراءة والكتابة، ولم يتلقَ علماً، او يدرس على يد أحد، سواء قبل النبوة او بعدها، مما يدل على الانفصال الكامل بين المُلقي والمتلقي، وكان من الطبيعي ان يوفر هذا الوعي المركز مهمة الغوص في العالم ﴿...أقرأ وربُك الأكرمُ الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾، فهي مسيرة شاقة من الاستكشاف الى الخلق، وان كان الوجود الرحيب هو الحاضن المسبّق للعملية كلها، والقراءة هذه بكل مقترباتها ليست جواباً على هموم محمد الفرد كما يدعي بعضهم، بل هي بداية تأسيس لحضارة جديدة قائمة على تعقل الوجود، ليس بدلالة الأوامر التربوية والبنائية الصادرة وحسب، بل اعتمادا كذلك على منطق التوجيه المباشر الذي تلا

هذه البداية الكونية الجذرية ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر...﴾. فهذا التوجيه مزيج من عنصرين أساسيين، مهمة إنسانية تتجسدُ بالإنذار من جهة، والاستعداد لهذا الإنذار بكل ما يتطلبه من نظافة روحية وصلابة موقف وتحمل مشاق من جهة أُخرى؛ لأن هذا الإنذار سيكون (قولاً ثقيلاً)، فليست المسألة هموماً فردية كانت تراود ذهن محمد بن عبدالله، وإلا كان بالإمكان اختصار كل هذه المضاعفات الشاقة في حدود الدائرة الشخصية الضيقة، فيرتسم سلوك من سبقه او عاصره من الأحناف، ولكنه مأمور ومكلف.

بقي ان نفصح عن شيء في غاية الأهمية والضرورة، ما ورد حول اقرأ من روايات تصور الرسول خائفاً وجلاً، وما ذكر في هذه الروايات عن دور ورقة بن نوفل ... هذه الروايات لا أساس لها من الصحة ولكاتب هذه السطور دراسة مخطوطة تثبت زيف هذه الروايات لعل الحظ يوفق لطبعها.

(١٤)
تنبؤات القرآن المستقبلية، نمط آخر

من الأدلة التي تساق عادة على نبوة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم، تنبؤات القرآن بكثير من الأحداث والوقائع، ووجه الاستدلال في ذلك وقوعها وحصولها، فإن مثل هذا يعد من خارق العادات، أي أنه يدخل في باب المعاجز، ولكن المفسرين تعاملوا مع هذه الحقيقة العظيمة ببساطة مذهلة، فهم يمرون عليها مروراً عابراً، في حين ان مراجعة الآيات التي تتعلق بهذا الموضوع، ومقاربة المسائل و الظروف التي صاحبتها وارتبطت، بها تكشف عن أسرار مذهلة، تسلط مزيداً من الحقائق على نبوة هذا الرسول الكريم.

لقد تعامل المفسرون مع الظاهرة كنتيجة جاهزة ونهائية، دون القيام بعملية تشريحية لأدوات القضية، و ذلك من مضمون ونتائج و ملابسات وظروف سائدة وقيم حاكمة، ونحن هنا نحاول ان نستعرض جملة من هذه المقتربات.

* قال تعالى: ﴿سيُهزم الجمعُ ويُولُّون الدُبر﴾.

نزلت هذه الآية في معركة بدر، حيث تعد صراحة باندحار قريش

وانتصار المسلمين، وان ذلك قريب ومؤكد!

* قال تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ والقصة في هذه الآية معروفة، فقد غلبت الفرسُ الروم في معركة مشهورة، وقد فرح لذلك المشركون؛ لأن العقيدة الفارسية اقرب الى ذوقهم الديني، مما عليه أهل الكتاب، ولكن القرآن تنبأ بأن معركة جديدة ستنشب بين الطرفين، وستكون الغلبة للنصارى، وان هذا واقع لا محالة من حصوله.

* قال تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾.

فان هذه الآية تنطوي ضمناً على تنبؤ مستقبلي غيبي مفاده القريب، ان أبا لهب وزوجه سوف لن يسلما الى آخر لحظة من حياتهما.

* قال تعالى: ﴿أنا أعطيناك الكوثر. فصلِّ لربك وانحر. ان شانئك هو الأبتر﴾.

موضوع السورة هو الآخر معروف تاريخياً، فإن العاص بن وائل عيَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بأنه مقطوع النسل، والقرآن هنا يطرح صورة مستقبلية معاكسة تماماً، القرآن يُنبئ باستمرار نسل رسول الله، وانقطاع اثر العاص بن وائل.

* قال تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين﴾.

في هذه الآية الكريمة يأمر الله عز وجل النبي بأن يبلغ الرسالة، ويعده في الحفاظ على حياته الشريفة من شر الأعداء، ويؤكد له ان هؤلاء الأشرار، لا يملكون السبيل دون ظهور هذا الأمر العظيم.

* قال تعالى: ﴿**ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد**﴾.

الآية تبشر النبي الكريم بأنه سوف يعود الى مكة، الوطن الذي طرد منه، والذي طالما كان يتشوق إليه، ويتطلع الى رؤيته.

* قال تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً**﴾.

القرآن في هذه السورة الشريفة يؤكد ان مكة سوف تفتح، وان الناس سوف يدخلون في رحاب الإسلام جماعات تلو جماعات.

* يقول تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من بعده الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ...**﴾.

إن الآية تشير بوضوح، إلى أن هذه الأمة سيعتريها نوع من الاضطراب بعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وان هذا الارتباك يتصل بالعقيدة، كما نفهم من مقدمة الآية الشريفة.

* قال تعالى: ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدْخُلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾.

تخبر هذه الآية المسلمين بأنهم سيدخلون المسجد الحرام لتأدية العمرة بكل اطمئنان دونما حرب، حيث يؤدون المناسك كاملة بحرية كاملة.

* قال تعالى: ﴿أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

هذه الآية القرآنية الشريفة تنبئ بصيانة القرآن من التحريف، وتؤكد بقاءه سالماً حاضراً، لا ينال منه الضياع او التلف، انه الكتاب المستمر.

* قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذُكروا به فأغرينا ببينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾.

في هذه الآية الشريفة يشير القرآن الكريم الى نوع العلاقات التي ستحكم طوائف النصارى في المستقبل، وقد وصفها بالعداء المستحكم والبغضاء الدائمة الى ان تقوم الساعة.

* قال تعالى: ﴿سنسمه على الخرطوم ...﴾.

هذه الآية نزلت في حق المشرك العنيد الوليد بن المغيرة، تتوعده بهذه السمة على أنفه، وهو من الشخصيات العربية المعروفة في العصر الجاهلي.

هذه مجموعة سريعة من الآيات القرآنية التي تتنبأ بالغيب، بصورة مباشرة سافرة، او بصورة غير مباشرة. وفي الحقيقة ان بعض هذه الآيات تطرح غيباً يتجاوز الحدث المجرد، فالقرآن في قوله تعالى ﴿لتدخلنَّ المسجد الحرام ...﴾ لا يعبر عن حدث رياضي مفرد، انه ليس مجرد دخول عادي، بل هو إضافة الى ذلك قوة وعزة وأمن واطمئنان، بل واندحار الخصم واستسلامه وخضوعه، فالتنبؤ هنا ضخم في موضوعه، كبير في أحداثه.

ان تنبؤ القرآن ليست مجرد حدث عابر بل هو فضاء. انه حدث على مستوى خطير من الأهمية العقائدية والتاريخية والسياسية، محفوف

بالوعد والوعيد، مشحون بالانتظار والتوتر والتطلع، يتوقف عليه مصير عقائدي حاسم، إما الاندحار المطلق وإما الانتصار المطلق.

ماذا نريد من كل هذا؟

ان التنبؤ امتحان ... اختبار ...معبر خطير ...وهو يكون امتحاناً عسيراً إذا اقترن بالوعد والوعيد، وليس بالأماني القلبية المجردة، ويكون اختباراً قاسياً، بل في أقصى حدود القسوة، إذا جاء في لغة الجزم والقطع،وليس في لغة الاحتمالات، وهو معبر زلق للغاية، إذا كانت كل المؤشرات او معظمها لا تنسجم مع مضمونه، ومن هنا كانت التنبؤات القرآنية جامعة لأصعب شروط الامتحان، ولأخطر خصائص الاختبار، ولأدق معاني المخاطرة ...ان محمداً ليس معرضاً للتكذيب هنا إذا سقط التنبؤ، او إذا تحقق بصورة مهلهلة مشوشة، حيث يمكن تزييفه بشكل وآخر، او جاء وهو يحتاج الى لغة التأويل والتحميل لإثبات المطابقة ... ان محمداً في مثل الأحوال، ليس معرضاً للتكذيب فقط، بل هو معرض للهزيمة والانهيار، وربما الى القتل، والقرآن عندما يتنبأ بهذه السعة من الأحداث والمداليل، إنما يبرهن على أصالة تحديه، ومن ثم تتضح تماماً ثقة محمد بنبوته.

ما هو مصير هذه التنبؤات القرآنية؟

اندحرت قريش وحلفاؤها في معركة بدر، وكان الاندحار ضربة قاصمة لقريش وكبريائها، فيما كان الانتصار عزة ومنعة للمؤمنين المستعفين، ونشبت معركة جديدة بين الفرس والروم وانتصر النصارى انتصاراً ساحقاً وعمت الفرحة المسلمين، وبقي أبولهب وزوجه على كفرهما

وعنادهما، وعانى رسول الله منـــهما الأذى الكثـير حتــى آخـر لحظـة مــن حياتهما،واستمر نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانقطع نســل العاص بن وائل، وهذا هو الكتاب المبين تتناقله الصدور المؤمنة جيــلاً بعـد جيل، لا يقرأ أثناء الليل والنهار فحسب، بل هو محل عناية ودراسة المؤمــن والمنكر، ويكفي ان نعرف انه الكتاب الذي ســجل أعلــى وأوســع درجـات الاهتمام، وما كتب عنه يفوق ما كتب عن غيره مــن الكتــب علــى الإطــلاق، سواء سلباً أو إيجاباً، وقد حفظ الله النبي من أعدائه، ولم يدع هذه الحيــاة إلا وقد قال ما عنده ﴿اليــوم أكملـت لكـم دينكـم وأتممـت عليكـم نعمـتي ورضيت لكم الإسـلام ديناً...﴾، ودخل المسلمون المسجد الحرام مرفوعــي الرأس، وقد أدوا مناسكهم بكل حرية، وبثقة واعتزاز، ولم يشــهد التــاريخ عداءً مستفحلاً كما هو بين النصارى، وتاريخ الحروب بين هؤلاء النصارى مستحكم قائم يتسم بالقسوة والغلظة، والعـداوة بينـهم عمـت بشـرورها البشرية بأجمعها، واكبر شاهد على ذلك ان الحروب العالمية بــدأت منـهم، وإذا استؤنفت فستكون منـــهم وبســببهم!، وهــذا الوليـد قـد وُســم علــى انفه،حتى كان ذلك من علائم السخرية به على لسان قومه.

ان المسألة اعمق من ان تؤخذ النتيجــة جـاهزة، وتقـرر علــى ضوئـها، فهناك حقائق كثيرة يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار ... ومن المســائل المهمـة هنا هي نفس عملية التنبؤ بالغيب، وذلك بالنسبة لمدعي النبـوة، فـهي بـلا ريب مجازفة خطرة، مجازفة انتحارية، رهان خاسر إلى درجة كبــيرة مــن الاحتمال، ولكن كل هذا يصح إذا لم يكن النبي متصلاً بالغيب فعلاً.

ان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يدعي النبوة، وانه أوحى إليه بكل ما يدعيه ويقوله ويفعله، عقيدة او شريعة أو أخلاقاً أو خبراً أو وعداً أو وعيداً أو نبأً، ولذلك فإن أي تخلف في هذا التنبؤ، وبأي درجة بسيطة، سيكون مدعاة للشك، ومدعاة للتكذيب.

كان بإمكان محمد ان يوكل كل الأمور الى الله بشكل وآخر، وينقذ نفسه من مخاطر التنبؤ، وكان بإمكانه ان يصوغ هذه التنبؤات بلغة غامضة حتى يجد اكثر من طريقة للتفسير. كان بإمكانه ان لا يتورط بتنبؤات صارخة حادة، ولكنه نبي حقاً، ولذلك كان واثقاً من كل ما يقوله صلى عليه وآله وسلم.

لقد تنبأ القرآن و جاء الواقع مصدقاً بكل معنى الكلمة، وهذه ميزة جوهرية للتنبؤ القرآني على غيره، ذلك إن وجدت حقاً إمكانية للتنبؤ بالغيب، في نطاق الاستعداد البشري؛ لان العلم الحديث ينفي مثل هذه الإمكانية، واكثر المتنبئين تأتي تنبؤاتهم مطابقة للواقع، إما صدفة وإما أنها نتيجة استنتاج من مقدمات خارجية. وفي الحقيقة من الصعب جداً إيعاز صدق التنبؤات القرآنية الى الصدفة، او الى قدرة فائقة على الاستنتاج، وذلك لما يلي:

أولاً: ان الصدفة لا تتكرر كثيراً كما هو معروف علمياً.

ثانياً: ان العودة الى الظرف الخارجي لا تكون باستمرار عاصمة من الوقوع في الخطأ، خاصة فيما يتعلق بالأمور ذات الطابع الاجتماعي.

ثالثاً: ان الكثير مما تنبأ به القرآن الكريم ـ كما أسلفنا ـ لا تساعد عليه الظروف السائدة في حينه، ولا الممكنات المتوفرة في وقتها!

نستطيع ان نقول ان تنبؤات القرآن الكريم الغيبية ذات طابع شمولي، أي تتسع لحالات وممكنات وصور متعددة.

* لقد تنبأ بمصائر أمم وشعوب وأفراد.

* لقد تنبأ على قرب من الزمن ومتوسط منه وعلى بعد ، وذلك في نطاق المدة الزمنية التي استغرقتها نبوة الرسول الكريم.

* لقد تنبأ سياسياً وعسكرياً وعلمياً.

* لقد تنبأ في ظروف قوة وانتصار وفي ظروف ضعف وقهر وترقب وخوف.

وفي الحقيقة ان هذه الصفة مهمة تتصل بموضوع التنبؤ القرآني، فهي ليست صيغة واحدة، ولا في مجال واحد، ولا في أجواء مناسبة متشابهة، الأمر الذي يعزز هذه الظاهرة القرآنية ويضيف إليها عناصر قوة أُخرى،وذلك من حيث دلالتها على نبوة هذا الإنسان الكريم.

ان جميع ما طرحه القرآن الكريم من التنبؤات كانت تحمل صفة الجزم المؤكد، فالقرآن لم يتردد في تبشير المؤمنين بالنصر او في دخول المسجد الحرام او في إصرار أبي لهب على الكفر او في استحكام العداء والبغضاء بين النصارى، او في جبن اليهود وتشتت بني إسرائيل في بقاع الأرض ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾، فهنا جزم وتوكيد، ولم يطرح القرآن مجموعة احتمالات في نطاق تنبؤاته، وهذه من علامات ثقة محمد بنبوته، بل من علامات النبوة بالذات، على ان ما يلفت النظر حقاً في هذا الموضوع، أن القرآن تنبأ بمستقبل لا تساعد الظروف ولا الممكنات على وقوعه، بل العكس هو المتوقع تماماً!

ترى أي علائم كانت تشير الى حتمية انتصار المسلمين على قريش؟

ترى أي ممكنات كانت تؤكد، ان محمداً سيحتفظ بحياته سالماً طوال ثلاث وعشرين عاماً؟ بل وأي شواهد كانت تشير، الى تمكنه من إيصال كلمته والاستمرار بها؟

ترى أي دلائل كانت تنبئ ببقاء القرآن، سليماً مصوناً من التحريف والتلاعب؟

ترى أي عوامل كانت تشجع على الاعتقاد الجازم، بأن المسلمين سيدخلون مكة منتصرين؟

العكس هو الذي كان متوقعاً!

وقد بذل الآخرون جهوداً مضنية لإثبات العكس!

طبيعة الأشياء من جهة وإرادة الآخر من جهة أُخرى.

كلاهما يرجحان الاحتمال المعاكس!

لقد بُذلت محاولات ضخمة لقتل الكلمة المحمدية، ومحاولات اضخم لتحريف هذه الكلمة، وجيش الجاهلية كان أضعاف المؤمنين في معركة بدر، حتى لا يمكن المقارنة.

ومع هذا وذاك ...

جاء التنبؤ القرآني طبق الواقع تماماً.

(١٥)
ثنائية النص والضمير

هل جاء القرآن الكريم تعبيراً عن حياة محمد الخاصة؟

هل كان هذا الكتاب انعكاساً لأحاسيسه الذاتية وانفعالاته النفسية ومشاعره الوجدانية؟

إن تقرير مثل هذا الرأي في غاية الصعوبة؛ لأنه يقوم على ادعاء مشكوك فيه، وذلك انطلاقاً من صعوبة الإحاطة بمشاعر الإنسان وخلجات ضميره وأبعاد عواطفه، فلا علوم الطبيعة ولا العلوم الإنسانية تدعي مثل هذا الإدعاء، وما يقال في هذا المضمار مجرد ظنون وتصورات أولى، وتحتاج الى دراسة الإنسان الفرد لمدة طويلة، وفي سياق من الاستعدادات المعقدة، وطالما يختلف الدارسون في هذا الموضوع، في تقييم النتائج وتقويمها، رغم وحدة المنهج وتشابه المادة المدروسة ووفرة البيانات ودقة الاستبيانات، فكيف مع شخص غائب يفصل بيننا وبينه مئات السنين؟ قضية شائكة وعسيرة، ومن الظلم ان نُسلم القياد لاستنتاج يُستخلص من مقدمات تتداخل فيها مثل هذه المفارقات والتناقضات.

ولكن من حقنا ـ مثلاً ـ ان نسأل عن انعكاسات وفاة ابنه إبراهيم في

القرآن، مع العلم ان الروايات التاريخية تشير الى حزنه العميق بسبب هـذا الحدث الجلل؟ خاصة وقد عُير بأنه مقطوع النسل، ولم يتعرض القـرآن الى هذه المسألة إلاّ رداً على متخرِّص! بـل أيـن هـي انعكاسـات وفـاة عمـه - مساعده الأكبر - ووفاة زوجه المخلصة في سنة واحدة، لقد كان لهذا الحدث انعكاساته الحادة المؤلمة على الرسول صلى الله عليـه وآلـه وسـلم، حتـى سمي ذلك العام بـ(عام الحزن) ... أين يا تُرى انعكاسـات هـذا الحـدث الخطير في القرآن الكريم؟ أين هي انفعالاته التي ظهرت بكل وضـوح علـى شخصه، في ذلك الوقت العسير من حياته؟ لماذا لم تتسـلل الى القـرآن ولـو خلسة؟ بل أين انعكاسات علاقته بخديجة، وهي الزوجة الأولى التي قضـى معها اكثر من عشرين سنة؟ أيـن هـي انعكاسـات تربيتـه في الباديـة، وفي أحضان مربيته حليمة السـعدية؟ ان كـل مـا جـاء في القـرآن الكريـم عـن الرسول العظيم مفردات تتعلق بسلوكه الشخصي، رداً على شبهة أو بيانـاً لحكم شـرعي أو علاجـاً لحـدث يخـص الدعـوة او تعضيـداً في مواجهـة الظروف الصعبة، وقد جاء ذكرها بشكل مباشر وعادي، وأحياناً تقريـري، وليس عبر معاناة عن تجربة ماضية، ولنكن على علم، ان الانعكاس الذاتـي والوجداني لا يظهران من خلال التعبير الواضح، بل يتخذان طرائق ملتوية في التعبير اللغوي والسلوكي، وكـل مـا يخـص محمـداً في القـرآن، يتسـم بالوضوح والصراحة والبيان، في حين أننا لا نعثر على أي انعكاس، لكثـير من التجارب الكبرى في حياة محمد في القرآن، نجد أن هناك اهتماماً بالغاً في حوادث، تكاد تكون عـابرة، قياسـاً الى غنـى وسـعة تجربتـه الضخمـة في

الحياة، ومن أمثلة ذلك قضية الأعمى: ﴿عبس وتولى. ان جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. او يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدَّى. وما عليك ألاّ يزكَّى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهَّى....﴾، حيث كان بإمكانه سلام الله عليه، ان يعالجها خارج القرآن وببساطة مذهلة، دون ان يجعل منها قضية بهذا الحجم، ومن الذي سيعترض عليه؟ ولكن القضية غير خاضعة لإرادته، ليست هي مشاعر ذاتية محضة، ولو كان الأمر كذلك،لكان لخديجة ـ مثلاً ـ موقعها الكبير في القرآن العزيز بصورة مباشرة وغير مباشرة، ولكان لمعاناته الشخصية في الحروب ـ مثلاًـ انعكاساتها المتميزة على صفحات الكتاب المجيد، فيما يعالج القرآن بصراحة مطلقة مواقف الصحابة السلبية والإيجابية في مسألة الحرب بالذات، بل أين هي انعكاسات شهادة عمه الحمزة بتلك الطريقة المفجعة فيما كان صلى الله عليه وآله لا يطيق النظر الى قاتله طوال حياته!

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من اشد الناس انفعالاً بالقرآن، وكان يستمع بخشوع الى النص القرآني الرائع، حتى روي عنه إنه قال (شيبَّتني سورة هود)، وذلك لما تتضمنه من صور ومشاهد عن أهوال يوم القيامة، مما يفيد أن هناك إلقاءً على قلب الرسول، وأن هذا الإلقاء يملك قوة التحكم في ضميره، إن هذه الصور ليست من إنشائه، خاصة وهي صور مفصلة تقوم على محاكمة دقيقة لمعنى الإنسان ومسؤولية الحياة، وللدليل مكانته الخاصة في صلب هذه الصور، فليست هي معاناة،

بل هي فكر وبرهان وتحليل، ومما يلفت النظر حقاً، ظاهرة مقولة القول في القرآن، فإن كلمة (قل) على لسان الرسول الكريم تحتل مكانــة بنيويـة في القرآن، خاصة في مجال الأسئلة التي كان يوجهها مختلف الناس الى النــبي العظيم (**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ...**)، ﴿**يســألونك مــاذا ينفقون قل ما أنفقتم من خـير فـالوالدين ...**﴾، ﴿**ويســألونك عــن الشــهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ...**﴾، ﴿**ويسألونك عن الروح قل الــروح من أمر ربي ...**﴾، هذه الظاهرة تشغل مساحة كبيرة مــن القـرآن الكريـم، وفي موضوعات شتى، وهي صيغة تكرس الثنائية الصارخة بين محمد مـن جهة، ومصدر النص القرآني من جهة أخرى، وتنفي تماماً ان يكون القرآن كما يزعم البعـض عبـارة عـن تـأملات باطنيـة، او مجموعـة مشـاعر، او انعكاسات لعقد و مشاكل كان يعاني منها رسول الله، خاصــة وان مقـول القول قد يأتي في الحين او بعد حين، وهذه الصيغة تنسجم تمام الانسجام مع قوله تعالى ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنــا منــه بــاليمين. ثــم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين ...**﴾، وســوف نتطـرق اكثر لتحليل هذه الظاهرة المهمة في السطور التالية، وفي الحقيقة ان الصيــغ التي تؤكد هذه الثنائية بين الرسول ومصدر النص كثيرة جداً، فإضافـة الى ما ذكرنا، هناك ظاهرة معاتبة الرســول، ﴿**وتخشــى النــاس والله أحـق ان تخشاه ...**﴾، ﴿**وما يدريك لعله يزكى ...**﴾، وهنـــاك ظـاهرة التقــاطع مــع رغباته، ﴿**يا أيها النبي لِمَ تحرم ما احل الله لك ...**﴾، وهناك ظــاهرة الأمــر الصـارم ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر**﴾، ﴿**فاصدع بما تُؤمر ...**﴾، ﴿**استقم كمــا**

أمرت...﴾، وهناك ظاهرة التهديد﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء قدير﴾، ونحن إذا جمعنا هذه الظاهرات بعناوينها العامة، ومن ثم تطبيقاتها الجزئية المنتشرة في تضاعيف الكتاب المجيد، وقمنا بعد ذلك باكتشاف علاقة الانسجام الكامل بين هذه الصيغ، في قواعدها الكلية والفردية، وأخذنا في نظر الاعتبار، نزول القرآن نجوماً، على مدى ثلاث وعشرين سنة متواصلة، عبر فترات زمانية متقاربة ومتباعدة، وفي ظروف متناقضة متباينة، تتراوح بين السلم والحرب، بين السرية والعلنية، بين القوة والضعف، بين الأُلفة والهجرة ... إذا دققنا في كل هذه المقتربات، فلابد ان نخرج بنتيجة، تؤكد الثنائية بين مصدر النص وشخص محمد، بل لاكتشفنا بوضوح ان النص هو المتحكم في ضمير الرسول، وليس العكس، فهناك مُرسِل ومُستقبِل، و ليس للصدفة هنا قيمة،لأنها لا تتكرر كثيراً، وذلك بحكم القوانين الرياضية والفلسفية، ولا للإرادة المسبقة هنا مكان ايضاً، وذلك حسب مقاييس التكوين البشري، فللنسيان والغضب والرغبة، ولكل الميول الإنسانية الأخرى، دورها الفاعل في تقرير فكر الإنسان وكلامه وسلوكه، عن قصد وغير قصد.

(١٦)
سؤال حيرة أم إعجاب

لقد طرح أهل الجاهلية موضوع النص القرآني للسؤال، كانوا يتساءلون عن مصدر هذا النص الرائع الجميل، وكانت لهم أجوبتهم المختلفة على هذا السؤال، وقبل ان نستعرض هذه الأجوبة، وندقق بقيمتها العلميـة، ينبغـي ان نستكشف دلالات هذا التسـاؤل، وهـي النقطـة الـتي لم يتطـرق أليـها الباحثون، إذ اكتفوا بمعاينة الجواب وحسب، وذلك من اجل تفنيـده، فيمـا السؤال بحد ذاته، يحمل اكثر من مغزىً، وهو ذو علاقة متشعبة بموضوع القرآن، ككتاب له فرادته الشاخصة وميزته المطلقة.

لقد كان عرب الجاهلية أهل كلام، بل هـذه هـي بضاعتـهم في التفـاخر والتسابق والتمايز، سواء على غيرهم او فيما بينهم، وكان للكـلام عندهـم طقوس من الاحتفال والاحتفاء، تعاهدوا فطرياً على تقديسه وحفظه ونقلـه ومدارسته، وعليه يكون للتساؤل عن مصدر النص القرآني اكثر من دلالة.

ان أول ما يمكن ان نستفيده من هذا التساؤل، هو ان هذا النـص، بـهر الذائقة العربية. لقد فاجأ عباقرة الصناعة اللغويـة العربيـة بلغـة جديـدة، سواء في الأسلوب او المضمون، رغم انها لغتهم، وقد برعـوا بـها لقـرون،

وهم في الأساس فرسان كلام، فالسؤال عن مصدر هذا الإبداع، دلالة على الانبهار الكبير، وينقل لنا التاريخ اكثر من شهادة في هذا الخصوص، بل كان ذلك من القضايا الكبرى التي شغلت أوساطهم ومحافلهم، فالمفاجأة كانت كبيرة وصادمة. ان تساؤلهم لم يكن من منطلق الإعجاب، بل من منطلق الدهشة والحيرة، ولذا يصفه الوليد بن المغيرة لقومه، وكان قد سمع بعض الآيات على لسان رسول الله (وماذا أقول؟فوالله ما منكم رجل اعرف بالأشعار مني، ولا اعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ان لقوله الذي يقول لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وانه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وانه ليعلو ولا يعلى، وانه ليحطم ما تحته ...).

كان السؤال عن (مصدر) النص، وما ذلك، إلا لأنهم لم يألفوا هذا اللون من الكلام، اخترق عبقريتهم، أربك قدرتهم، بعثر جهودهم، كلام غريب، يفوق القدرة البشرية، شيء جديد تماماً، فالسؤال من جنس الحَيرة، وليس من جنس الإعجاب، مهما كانت درجة هذا الإعجاب، ولذا حاروا في التفسير والتعليل. ومن دلالات هذا التساؤل، ما يكشف عن بعض أبعاد شخصية الرسول آنذاك، لقد كان فيما بينهم كأحدهم، لا يمتاز عنهم إلا بشيء واحد، ذلك هو السلوك النظيف، فمن أين جاء بهذا الإنجاز الخارق الذي أعجزهم جميعا؟ وهو تساؤل طبيعي ومعقول، خاصة انه لم يزاول الشعر بنص القرآن، ولم يدخل في مباراة كلامية كما هي هوايتهم، بل كما هي حرفتهم، وكان أمياً، لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس على يد أحد،

ولم يختلط بعالم او شاعر او طائفة، فالتساؤل في محله، فإذا جمعنا بين هذه المقتربات من جهة، وطبيعة الكلام الخارق من جهة أخرى، يتضح لنا بكل جلاء، ان تساؤل القوم كان نابعاً عن حيرة، وليس عن إعجاب، ذلك ان الإنجاز الذي يحوز على الإعجاب، يمكن العثور على أسبابه من علم او موهبة أو مران أو تعليم، و يتجاوز نظيره بالدرجة، فيما الإنجاز الذي بين أيديهم لا نظير له على الإطلاق، وإذا كان هناك إعجاب، فهو في منزلة الحيرة.

ما ذا قالوا؟ لقد فسر بعضهم القرآن سحراً ﴿إنْ هذا إلاّ سحرٌ يؤثر﴾!

وليس من شك ان هذا المنحى من التفسير يعكس الحيرة ايضاً، انهم أمام ظاهرة غير عادية، ولذا لجأوا الى هذا التعليل غير الطبيعي، والقرآن بطبيعة الحال ليس سحراً، لان هذا الأخير تمائم وعوذ وكلمات مبهمة، فيما القرآن معادلات فكرية قواعد اجتماعية وتصورات تاريخية، تتسم بالوضوح والصراحة، وهو كتاب سجال، يناقش ويحاور ويستدل وينقض، جاء - بحسب تعاليمه - لبناء أُمة جديدة ذات كيان عقائدي خاص وبنية نظمية متميزة، فأي علاقة بين هذا والسحر، سواء على مستوى المضمون او الهدف او الآلية؟! كما ان القرآن ذاته شن حملة شعواء على السحر بالذات، وأشار الى بطلانه وخوائه، وكل هذا يجعلني اعتقد، ان بعض هؤلاء وسموا القرآن بالسحر، ناظرين الى قدرته الفذة على اجتذاب العقل والذوق، والى قدرته الفائقة على الإقناع الفكري، والى مقدر الحركة الهائلة التي أحدثها في الوسط الجاهلي آنذاك.

قال بعضهم:إنه من ذكريات العقل البائد ﴿قالوا أساطير الأولين﴾!

وهو قول يكشف عن العجز المفضوح، وإلاّ لكان بإمكانهم ان يستفيدوا من هذه الأساطير، ويؤلفوا منها البديل، وبذلك يقطعوا دابر هذه الفتنة، على ان نقطة الضعف الأخرى في هذه التهمة، أنها خالية من أي إحالة، ومن أي شاهد، مما يؤكد انه جواب الهاربين، بل انه جواب المفزوعين.

قال بعضهم: انه مجنون ﴿ويقولون انه لمجنون﴾.

وهي تهمة اكثر من ان تكون تفسيراً، ولم يكن محمد مجنوناً، بل يتمتع بصفاء ذهن، لا نظير له على الإطلاق،وكان سلوكه آية للاحتذاء والاقتداء في كل مجالات الحياة ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾، ولكنها لغة العاجز المفزوع، ولا اعتقد ان هؤلاء كانوا مطمئنين الى مثل هذه التعليلات أبداً.

قال بعضهم: انه كاهن ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾.

وهو تفسير لا يختلف عما سبقه، قائم على مغالطة كبرى، ذلك ان الكهانة تتقوم بالعلم بالغيب من دون واسطة وبلا سبب خارجي، او من خلال الاتصال بالجن، ومحمد لم يدعِ الغيب إلا بوحي من الله ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ...﴾، ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ...﴾ وقد رد عليهم القرآن الكريم ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون)، فذاك سجع آخر، يغاير ما يلقيه محمد على مسامعكم.

قال بعضهم: انه شاعر ﴿... بل هو شاعر﴾.

وهو تفسير تافه لا يقوم على أساس، قال بذلك الوليد بن عتبة، وكان من عيون العارفين بالشعر، ومن نقاده الفحول، والقرآن يرد على هذه التهمة الجديدة بمنطق الحس والعقل، ذلك أن ﴿الشعراء يتبعهم الغاوون﴾،

وهذا لم يحصل مع القرآن أبداً، ثم ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين﴾، فلا جامع بين الشعر، وهذا الذي يتلوه محمد بن عبدالله على مسامعكم، سواء على مستوى الأسلوب، فليس هو بالكلام الموزون المقفى، أوفي خصوص الهدف، الذي تجسد في بناء عقل جديد ومجتمع هادف ﴿ولتكن منكم أُمة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ...﴾، أو في هوية المؤمنين والاتباع، فقد كانوا أصحاب مسؤولية روحية حملهم على التضحية بكل شيء ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾، او على صعيد الأثر النفسي، ومن علاماته الخشوع وإعمال الذهن وفق معادلات فكرية محسوبة بدقة، والآيات في ذلك كثيرة جداً، فأين هذا من ذاك، ولذا ﴿... ما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾، وأخيراً وليس آخراً، لم يُعهد إنه كان شاعراً.

قال بعضهم:مجرد أحلام سائبة ﴿قالوا أضغاث أحلام ...﴾.

وهو الآخر جواب العاجزين، هروب من التحدي، ولا اعتقد ان مثل هذا التقييم يحتاج الى رد، وإذا أردنا ان نجاري مثل هذا المنطق، فيكفي ان نشير الى الجانب البرهاني في القرآن.

قال بعضهم: إنه أخذ القرآن من قن روماني كان يصنع السيوف، فأجاب القرآن على هذه الفرية المفضوحة بقوله تعالى ﴿ولسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

أما الإدعاء بأنه أخذ ذلك من أهل الكتاب، فيكفي أن القرآن جاء نفياً مطلقا لأكثر وابرز ما تسالم عليه أهل الكتاب بالذات، خاصة فيما يتعلق

بالتوحيد والنبوة، وفي القرآن من الجغرافية والتاريخ والقصص والأقوام كقوم عاد ـ مثلاً ـ ما ليس له ذكر في كتبهم، وهذا هو موضوع المعاد يملأ صفحات من الكتاب الكريم، ويحتل أهمية مركزية في القرآن، فيما يكاد يكون مهملاً في التوراة والأناجيل، التي لم تكن مترجمة الى اللغة العربية آنذاك.ولم يسجل التاريخ أي علاقة لنبينا الكريم، مع أيٍّ من أحبار ورهبان اليهود والنصارى، ولم يدَّع أحد من أهل الكتاب، ان محمداً استقى منه بأي شكل من الأشكال، وأما عبدالله بن سلام فكان من اشد اليهود عداوة لرسول الله، وكان حبر اليهود الأعظم، ولكن الرجل اسلم، وصار من اكثر المسلمين وفاء لرسول الله، وقد دخل الإسلام عن قناعة وإيمان، فجلب على نفسه عداء قومه وجفاءهم، وقد أسلم في المدينة، ومعه أهله وثلة من خاصته، وبعد كل هذه الحقائق الواضحة، هل هناك من قيمة علمية لمثل هذا الإدعاء؟ أما سلمان الفارسي فكان من ابرز الدعاة الى رسول الله، يحبه حباً عميقاً، ويطيعه طاعة مطلقة، ويتلقى منه التعاليم بلا فاصل من زمن او نقاش!

ان التمعن الدقيق في التساؤل الذي كان يثيره هؤلاء، حول مصدر القرآن يكشف عن حيرة، عن ذهول، كما ان التمعن في التعليلات المطروحة يكشف عن عجز وإحباط، ولذلك تركوا حرب اللسان وتوسلوا بحرب السنان، وفي فقرة قادمة ـ ان شاء الله سنتحدث عن بعض ملامح المصدر الإلهي للقرآن.

(١٧)
اكبر من الواقع

أحدث القرآن الكريم نقلة جذرية في المجتمع العربي، هذا ما يتفــق عليــه كل الدارسين، وقد امتدت هذه النقلة في أثارها الى العالم كله،و ما تزال هذه النقلة الجذريــة الانقلابيــة تــؤدي دوراً قياديــاً فــاعلاً في صلــب التــاريخ، والمطلوب تقليب النظر في جوهر هــذه النقلــة الكبــيرة وعلاقتــها في الواقــع السائد في تلك الفترة من الزمن.

* لقد رفض القرآن رفضاً جذرياً الوثنية، وكــل مــا يــترتب عليــها مــن استحقاقات و مسؤوليات وآثار، وأســس عقيــدة التوحيــد المطلــق، وكــان الرفض حاسماً جازماً مباشراً، ورتــب علــى القــول بالوحدانيــة الحاكميــة الإلهية الشاملة، و بهذا يكون التوحيد بالمفهوم القرآنــي مشــروعاً عقائديــاً وتشريعياً وأخلاقياً كاملاً، إنه مشروع مصير ابدي وقاطع.

هذا المشـــروع الضخــم هــل كــان انطلاقــاً مــن قيــم الواقــع وأحكامــه وتصوراته؟ لا توجد أي مناشئ انتزاع تشجع على مثــل هــذا الاســتنتاج، فالتوحيد الذي بشر بــه الرســول العظيــم، لم يكــن تجميعــاً لجزيئــات او جزئيات أو وحدات متناثرة هنا وهناك، لم يكن نسقاً تلفيقياً، ولا هو عملية

تطوير لحالة موجودة، بما فيها تأملات بعض الأحناف في ذلك الوقت، فإن الله في القرآن ليس هو الله الذي كان يتحدث عنه قس بن ساعدة مثلاً، ليس هناك فرق شاسع بين الظاهرتين وحسب، بل ليس هناك مجال للمقارنة بينهما أبداً، ولا هو بمثابة رد فعل على عبادة الأصنام او الكواكب او الملائكة او أي عبادة أُخرى، لان مفهوم العبادة بالتوحيد القرآني تجاوز نطاق الاتصال الفردي بالمعبود، ودخل في نطاق متشعب من المسؤولية، واصبح مبدأ الوجود والحياة والاخلاق والمصير والبداية والنهاية مرتبطة بهذا المعبود القادر الحي، الذي له كل الأسماء الحسنى، ولذا ليس من المعقول ان يكون التوحيد القرآني مجرد رد فعل لعبادة الأصنام او الكواكب او الملائكة او الأرواح، ويسيء من حيث لا يشعر، كل من يحصر مهمة التوحيد في تصحيح عقيدة الشرك اليهودية او النصرانية، ذلك ان عقيدة التوحيد من وجهة القرآن بالذات، إنما هي الحقيقة المطلقة، التي يجب ان تتخذ موقعها المتقدم و الكامل من الحياة، سواء هناك تثليث او لم يكن، فالأصالة هي المتحكمة هنا، وليس من شك، ان التوحيد في المنظور القرآني، ليس عملية تهذيب لفكرة الأب والابن وروح القدس، لأن القرآن قد حكم مسبقاً بفساد هذه العقيدة جملة وتفصيلاً، فهي غير قابلة للتهذيب أبداً، بل لابد من نبذها، لابد من طرحها تماماً، وقد احتاط القرآن كثيراً من وقوع الأذهان في هذا اللبس العقائدي المشين، حتى انه لا يذكر عيسى إلا ويقرنه بأُمه مريم سلام الله عليهما، ومن كل هذه الحقائق الواضحة الحية، نستطيع ان نعي لماذا رفض رسول الله منطق المناصفة في موضوع

الألوهية، ولماذا رفض مبدأ التدرج في التخلي عن عبادة الأصنام، ولماذا رفض فكرة الاحترام العقائدي المتبادل، وقول القرآن ﴿لكم دينكم ولي دينِ﴾ لا يعني احترام هذه العقيدة، ولا مسايرة الأمر الواقع، بل إقرار مبدأ المسؤولية الفردية في اخطر قضية تهم الإنسان، تلك هي إشكالية العقيدة، ان عقيدة التوحيد بالشكل الذي جاء به القرآن تأسيس جديد. لنقرأ ما يقوله القرآن عن الله، ثم نقرأ كل ما قاله الجاهليون، بل وكل ما كان موجوداً من نصوص في هذا الموضوع بالذات، ونعمل مقارنة، سوف نتخلى عن هذه المهمة، لأننا لن نجد أي قاعدة مشتركة، نستطيع ان ننطلق منها بثقة واطمئنان، للقيام بمثل هذه المهمة، إننا سوف نندهش ـ مثلاً ـ من هذا السرد المفصَّل والموزَّع لأسماء الله الحسنى على فعاليات الوجود وعناوينه ومظاهره وتجلياته، ومن خلال تشخيص دقيق لهوية وخصائص كل من الاسم من جهة وبركات الوجود من جهة أُخرى... اللهم إلا إذا أمضينا الاختلاف الكلي، واعترفنا بالافتراق الجذري.

* اتجه القرآن الى الإنسان بعنوانه الكلي العام، حيث تجاوز كل القيم الحاكمة في ذلك الوسط الضيق، أي قيم اللون واللغة والعشيرة والدم والحسب والجغرافية والمنزلة ...وكان ذلك من الإعلان الأول، أي من قوله تعالى (اقرأ...)، وجاءت كلمة الإنسان في هذا الإعلان مجردة من أي علامة حاصره، ما عدا كونه مخلوقاً لله جلَّ وعلا، وانه ذو ميزة فائقة ألا وهي العلم، فأين هي انعكاسات البيئة المزعومة؟.

من القيم العشائرية الى القيم الإنسانية، ومن مفهوم القبيلة الى مفهوم

الأُمة، ومن الأهداف الشخصية الى الأهداف العالمية، ومن الانغلاق على الذات الى الانفتاح على الوجود كله، ومن حكم الأعراف الى حكم القانون المدوَّن، ومن محنة التشتت الى مسؤولية الاستقرار،ومن منطق الفوضى الى منطق الدولة ... قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم﴾.

وقال تعالى:﴿ولتكن منكم أُمة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...﴾.

وقال تعالى: ﴿مالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين في الأرض﴾.

وقال تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم﴾.

وقال تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم ...﴾.

هذه نماذج نظرية سريعة للاستدلال على ما نقول، ولكن كل هذا لا يغنينا عن مراجعة الواقع الحي الذي تركه الكتاب الكريم، إذ جسَّد النقلة النوعية الشمولية الجذرية في الأُمة التي نزل في وسطها، وهذا أمر معروف.

لم تكن هذه القيم عبارة عن عملية تلفيقية من وحدات متناثرة هنا وهناك، فهي قيم تتميز بالوحدة والانسجام، ومن ابرز ما يميزها ارتباطها بالله كمصدر ومنبع ومآل، فضلاً عن كونها مما يتذوقه ويستمزجه العقل السليم والشعور النظيف، وهي قيم تخاطب الإنسان بما هو إنسان، في كل زمان ومكان، انها نقلة مدهشة، لانها لم تتجاوز الفهم الضيق للأخلاق، او الفهم المحدَّد من خارجه بقيم العشيرة والجغرافية والتقاليد وحسب، بل أرست نظرية القيمة الذاتية للأخلاق نفسها، أمضت فكرة الجمال الذاتي

للأخلاق ﴿لا يجرمنكم شنأن قوم على ان لا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى...﴾ زيادة على ان موضوعها هو الإنسان في كل زمان ومكان.

هذه النقلة تعبر عن بناء جديد تماماً، وهذا ما يعبر عنه القرآن ﴿كنتم خير أُمة أُخرجت للناس...﴾ فهي أُمة لم تكن موجودة، وإنما أُخرجت للناس، وليس من شك ان هذا ينعكس على تصورنا للقيم التي نظَّمت هذه الأمة، فهي الأخرى انقلابية، فالصبر- مثلاً - لا يعني تحمل تبعات الظلم، وانما تحمل مشقات مقاومة الظلم، والشكر - كمثل ثاني - لا يعني الثناء في اللسان، وانما إضافة ال ذلك تجسيد هذا الشكر عملياً ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾، ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾، والعدل - كمثل ثالث - ليس المساواة الساذجة، بل إقامة التوازن، الذي من شأنه استمرار الحياة المعطاءة، وهو التعبير القرآني عن القانون الكوني وهكذا في كل القيم الأخلاقية والسياسية والاجتماعية، ولهذا نقول، وبكل ثقة إن هناك قاموساً لغوياً وقاموساً قرآنياً، حيث لا يوجد أي تطابق تام في المعنى بين الاستعمال العربي القديم والاستعمال القرآني، في مئات من الكلمات والمفردات، بما فيها أحياناً الكلمات والمفردات العادية كالسلم والحرب والحكم والزكاة والحج والسماء والجبال والنبي والإمام، فالقرآن أثرى اللغة العربية، لانه أعطى لاستعمالات هذه اللغة، الكثير مما يفوق المعنى التقليدي للكلمة والمفردة، ومن الغريب ان يسود الاستعمال القرآني ويُهجر الاستعمال القديم، وذلك في ظرف زمني وجيز، مما يشكل بعض معالم النقلة الهائلة التي أحدثها الإسلام، فالقيم التي جاء بها الرسول الكريم جذرية انقلابية، ليس لها صلة جوهرية بالقيم التي كانت سائدة إلا بالعنوان العام، وبعض اللمحات الخاطفة، خاصة بعد

هذا الربط الجوهري بين القيم من جهة، والله تبارك وتعالى من جهة أخرى.

فالواقع الجديد الذي صنعه الإسلام ليس خلاصة لمادة كانت موجودة، ولا عملية تهذيب وتشذيب لعينة مخصوصة، وإنما تأسيس جديد بمعنى الكلمة ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس﴾.

* ومن عناصر هذه النقلة الهائلة ما يتصل بالعقل، فلقد طرح القرآن فكرة العقل المفتوح القادر على الخلق والاكتشاف، فان قوله تعالى ـ مثلاً ـ: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ...﴾، لا يعني مجرد النظر، بل هناك معنى أعمق وهو ان العقل يستطيع أن يواصل هذا النظر بلا حدود، بدليل ان الآية لم تضع سقفاً معيناً لهذا النظر، سواء هذا السقف مكانياً أو زمانياً أو طريقياً، ومن معالم هذه النقلة الهائلة تصميم العقل وفق مقاييس جديدة من فنون الاستدلال والبرهان، اقصد في ذلك النظرة التجريبية وتصوير الحقائق كمياً، وبذلك أنقذ العقل البشري من إهدار طاقته في التأمل البحت، بل صرف العقل الإنساني الى ما يمكن من معرفة ونأى به بعيداً عن المساحات الغامضة مثل الطبيعة والماهية والذاتية، وركز على خصائص الأشياء والموجودات، ودعى الى سبر أغوار المفردات الكونية الجامدة منها والحية، وإذا بالعلم مفهوم واسع، ينطبق على الوصف والتحليل وجمع المعلومات والاكتشاف والخلق والتسخير والتوضيح وحل المشاكل الكونية والحياتية، والمعادلة القرآنية الجامعة لكل هذه المعادلات قوله تعالى ﴿إنَّا كلّ شيء خلقناه بقدر﴾، وعلى امتداد هذه النقلة الحية طرح ذلك التصور للكون الذي يجمع ببراعة بين الوظيفة والخصائص والحكمة والنظم.

هذه صورة مبسطة سريعة عن النقلة الهائلة التي أحدثها القرآن الحكيم في التاريخ، والمسألة المهمة في هذا الخصوص أن القرآن، ما زال يُحدث مثل هذه النُقلات في جسد التاريخ، فالقرآن ما زال حيّاً، تستلهمه الأجيال، يمكن تقديمه في كل زمن برؤية جديدة.

هذه النقلة ليست من إبداع محمد، كيف يكون ذلك، وهو الذي لم يعرف القراءة والكتابة بنص القرآن الكريم؟ ولم يطلع على كتاب بشكل مباشر او غير مباشر ﴿هو الذي بعث في الأُميين رسولاً منهم ...﴾، ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي...﴾، ﴿ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون...﴾؟ ولم تكن في الحجاز، بل وحتى في المدينة، طروحات فكرية وفلسفية ودينية إلا في حدود ضيقة جداً؟ ولم توجد تلك الآثار الحضارية التي يمكن استلهامها؟ ولم نعرف أن هناك مدارس وحوزات؟ ولم يجرؤ أحد ان ادعى، بان محمداً اخذ منه أو تتلمذ عليه؟ والغريب ان يدعي الجاحدون، ان هناك من كان يُملي على رسول الله القرآن كما هو نص الآية ﴿قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾، ولمزيد من تحليل هذا الموقف وفهمه جيداً ندرج الملاحظات التالية:

أولاً: إن هذا الاتهام يؤكد أُمية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فهو - كما ينص الاتهام - يكتَتِبُ مجموعة من الناس لتدوين معلومات، كانت تلقى عليه من طرف أخر، انه يكتتب وليس يكتب، وهذا يعزز قوله تعالى في الرسول الكريم ﴿ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ...﴾.

ثانياً: يدعي أصحاب هذا الموقف، ان هذا الإملاء كان ليل نهار،مما يعني

انه عملية مستمرة، وانهم على علم بمجريات القضية، بشكلٍ مجمل إذا لم يكن بشكلٍ تفصيلي، ولذا من حقنا ان نسأل أصحاب هذه الدعوى، عن هؤلاء الذين كان رسول الله يتملّى عليهم: من هم؟ ما هي أسماؤهم؟ ما هي عشائرهم؟

وربما ينصرف الجواب الى ذلك العبد الرومي الذي كان يصنع السيوف، وقد رد القرآن على هذا الفرية المفضوحة ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾، ويبدو لي انها تهمة عابرة، وليست عن تخطيط دقيق، تهمة تعتمد الإشاعة والتشويش، وإلا فما أسهل تثبيتها! إذا كانت صحيحة، فمحمد بين أيديهم وتحت ناظرهم، و العبد الرومي ليس بعيداً عنهم بل هو مستضعف، طوع إشارتهم وإرادتهم.

ثالثاً: ولست ادري لماذا لم يبادر أحد هؤلاء الذين كان رسول الله يتملى عليهم، ويعلن ذلك على الملأ؟ ما المانع من هذا الإجراء الذي قد يوفر على صاحبه أو أصحابه الكثير من المكاسب والمغانم؟.

تهمة الأساطير هذه تكررت في موقع أخر ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا إلا أساطير الأولين﴾.

ولكن القرآن الكريم تحداهم طوال عشر سنوات، فلم يأتوا بمثل هذه (الأساطير) المزعومة!

يذكر التاريخ ان الذي قال هذا شخص واحد، هو النضر بن حارث بن كلدة، مما يساعد على فهمنا لطبيعة هذه التهمة، فهي ليست بالتهمة الجادة، وإلا فمن غير المعقول ان ينفرد بها واحد بل والمئة في مثل ذلك الزمان، ومما يذكر التاريخ ان هذا الرجل بالذات، كان قاص قومه،

والقصاصون آنذاك كثر، وقد راح يستجدي حكايات رستم واسفنديار من بلاد فارس، ويذيعها على قومه مدعياً أن هذا مثل ذاك! ويذكر التاريخ (ان أبا سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن حارث جلسوا الى رسول الله وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فانزل الله قوله تعالى ﴿**ومنهم من يستمع إليك وجعلنا في قلوبهم اكنة ان يفقهوه في آذانهم وقر وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إلا أساطير الأولين...**﴾ فالتهمة نفسها والقائل ذاته والجواب عاجز.

و قد كان من دواعي نعت القرآن بأنه أساطير الأولين، هو فكرة المعاد التي فصَّل فيها الكتاب الكريم ﴿**أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾، ﴿**والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني ان اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين**﴾، ﴿**الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين**﴾ وهؤلاء إنما يعترضون لان عقولهم لا تتحمل مثل هذه الفكرة! ان الأسطورة في منطق هؤلاء تستمد هويتها من عدم الوقوع تاريخياً! وهذه هي الأسطورة.

فالقرآن كان اكبر من الواقع الذي ولد فيه، ولكن هنا ملاحظة في غاية الأهمية أُريد بيانها، وهي ان الواقع الجديد الذي خلقه القرآن، إنما هو مصداق للنص في درجة من درجاته، وليس مصداقا استوفى كل درجات النص الممكنة، فان الطبيعة العامة للنص القرآني غير محدودة أبداً ﴿**قل**

انظروا مــاذا في الســماوات والأرض ...﴾، ﴿ولا تركنــوا الى الذيــن ظلمــوا فتمسكم النار ...﴾، ﴿وأمرهم شورى بينهم ...﴾، ﴿أحل الله البيــع وحــرم الربا ...﴾، ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...﴾، ﴿يا أيها الإنسان انــك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ...﴾، ﴿اعدلوا هو اقــرب للتقــوى ...﴾، فــهذه نصوص مفتوحة، يمكنها ان تتعايش مع الزمن دون توقف، بل هي قــادرة على خلق الزمن الجديد باستمرار، اكــثر مــن ذلــك انــها تحمّــل الإنســان مسؤولية خلق هذا الزمن الجديد ﴿وقل اعملوا ...﴾، ﴿فامشــوا في مناكبــها ...﴾، ﴿انظروا ماذا في السماوات والأرض ...﴾، ﴿يا أيها الإنسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه...﴾، ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى...﴾ وما في القــرآن من أحكام شرعية قطعية قليلة، فــلا مندوحــة مــن ثوابــت، ولا توجــد أي شريعة او دين او ايديولوجيا، روحية او ماديــة خلــو مــن ثوابــت معينــة. فعندما نقول ان القرآن اكبر من الواقع، لا نعني بذلك انه صيغة مثالية، ولا ندعي انه منفصل عن هموم الإنسان، العكس هو الصحيــح تمامــاً، وانمــا نعني بذلــك، ان القــرآن بنصــه المفتــوح يدعــو دائمــاً إلى تجــاوز اللحظــة الحاضرة، انه دعوة الى المضي قدماً، الى خلق واقع افضل و أسمــى، ومــن هنا لا غرابة إذا قلنا ان القرآن، قد يخلق أجيالا أرقى من الأجيال الســابقة، بل هذا ما حصل فعلاً، وحديث (خير القرون قرني ...) لا أساس لــه مــن الصحة، ويتنافى مع دعوة القرآن الإنسان الى الارتقاء دائماً.

(١٨)
الحضور الإلهي

القرآن الكريم كتاب الله تبارك وتعالى!

هذه القضية تتخذ مستويات عدة من الفهم والإدراك، ونحـن إذا تتبعنـا القرآن بإمعان، وقلبنا النظر في تضاعيف آياته الشريفة، لاتضح لنا، ان الله جل وعلا طرح ذاته من خلال هذا الكتاب العظيم، وبالتالي، فأن العلاقة بين الله والقرآن هي علاقة مصدرية ... علاقة تأسيس.

قال تعالى: ﴿أنا أنزلناه في ليلة القدر﴾.

بناءً على هذا المقترب كان لله الحضـور الكـامل في القـرآن ... حضـور بمستوى ذاته المقدسـة ... الحضـور الجـامع لكـل أسمائـه الحسـنى... حضور دائم ... مستمر... فعال.

* وردت كلمة الله في القرآن الكريم (٩٨٠) مرة.
* وردت كلمة رب اكثر من (٦٥٠) مرة.
* وردت كلمة الرحمن (٥٧) مرة.
* وردت كلمة رحيم (٥٤) مرة.
* وردت كلمة حكيم اكثر من (٧٥) مرة.

* وردت كلمة العليم (١٤٠) مرة.
* وردت كلمة قدير (٣٩) مرة.
* وردت كلمة غفور (٧١) مرة.
* وردت كلمة العزيز اكثر من (٨٠) مرة.
* وردت كلمة سميع (٤٣) مرة.
* وردت كلمة خبير (٣٣) مرة.

و هكذا مع كل أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى، وليس من ريب ان لهذه الكثرة الكمية دلالة ضخمة وعميقة، فأنها تؤكد و تبرهن على الحضور الإلهي والمركز، فهو ليس بالحضور العابر البسيط ... ليس بالحضور الكمي الساذج.

ان كثيراً من النقاد يعتمد إحصاء الكلمات في نقده الأدبي لهذه القصيدة او تلك، ويحاول ان يكتشف الموضوع الجوهري في القصيدة من خلال إحصاء استبياني، بل ربما يعمد الى هذه المحاولة مع الديوان كله، وفي الحقيقة ان ذلك يشكل خطوة أولى على هذا الصعيد، إذ لا بد مع هذا، ان يبذل جهداً إضافياً لاكتشاف طبيعة هذا لحضور... وزنه ... أهميته... موقعه ... حجمه ... دوره ... ونحن بلا ريب نلتقي بعدد ضخم من أسماء الله تعالى وصفاته في القرآن، ولكن ما هي مقتربات هذا الحضور؟

ان الحضور الإلهي في القرآن كالحضور الإلهي في الكون!

الله موجود في كل آية من آيات القرآن الكريم، بشكل مباشر او بشكل غير مباشر، فهو جل وعلا حاضر في القرآن بذاته وصفاته ...بأمره ونهيه ...بإرشاده وهدايته ... بوعده ووعيده ...بإخباره عن الماضي والحاضر

والمستقبل ...بقوانينه وشرائعه ...فـهو الحضـور الواسـع ...الدائـم ... الممتد... المتمكن ... بل وكثيراً ما يعبر هذا الوجود عن نفسه اكثر من مـرة في الآية الواحدة، ففي قوله تعالى ـ مثلاً ـ ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفـور الرحيم**﴾ يتكرر الحضور الإلهي بدرجة مكثفة، فالياء في (يا عبادي) تعـود الى الله سبحانه وتعالى، ثم هنـاك (رحمـة الله) وبعدهـا مباشـرة (ان الله) وتختتم الآية بذكر صفتـين مـن صفـات الله بعـد تصديرهمـا بضمـيرين يعودان عليه سبحانه ﴿**انه هو الغفور الرحيم**﴾، ففي الآيـة يـأتي ذكـر الله سبع مرات بطريقة وأخرى، فيما عدد المفردات التي تتكون منها الآية (٢٣) مفردة، ولو تأملنا حضوره سبحانه في الآية، لتبين لنا عمقه ووزنـه، فـهو أما من خلال اضافة إليه بلغة العبودية (عبادي) او مقترنا بالرحمة (رحمة الله)، او مع التوكيد (ان الله)، او مقترنا بالوصف المؤكد المتلاحق (انـه هـو الغفور الرحيم).

ان مثل هذا الحضور موجود بكـثرة غالبـة بـل هـو السـائد في القـرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿**قل أعوذ برب الفلق. من شـر مـا خلـق. ومـن شـر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد**).

الله موجود في كل آيات هذه السورة، فهو سـبحانه في الآيـة الأولى (رب الفلق)، واسم الجلالة فاعل مستتر في الآية الثانية، وفي الآية الثالثـة يمكننـا ان نقول في ضوء هذه المقدمة ان المعنى هو: أعوذ برب الفلق من غاسـق إذا وقب، وهكذا مع الآيتين الرابعـة والخامسـة.وبـهذا الطريقـة نسـتطيع ان نتلمس وجود الله وحضوره الصميمي في الكثرة الكاثرة من آيـات الكتـاب

المجيد، وهي ليست بالطريقة المتكلفة أبدا، لانـها تستهدي شـواهد لغوية ونحوية وبلاغية ومنطقية.

ان قراءة القرآن الكريم قراءة بنيوية شاملة تكشف لنا، ان كل آية من آياته الكريمة، إنما تكتسب تأسيسها وقيمتها وجمالها وحركتها وبدايتها ونهايتها من حضور الله فيها بشكل مباشر او غير مباشر.

ولكن أليس لرسول الله ـ هو الآخر- حضور في القرآن ايضاً؟

والجواب: بلى!

ولكن ما هو وزن هذا الحضور؟

ان حضوره صلى الله عليه وآله وسلم على هامش الحضور الإلهي الواسع المتمكن ...انه حضور تابع ...حضور محسوب ومقرور... فلم نجد عن حياة رسول الله إلا إشارات عابرة، أكثرها لأغراض تشريعية او تصحيحية او دعوتيه، او رداً على شبهة تتصل أولاً وأخراً بالدين، وذلك رغم ما صدر في حقه من ثناء، وعلى الرغم من استحقاقه الطبيعي لهذا الثناء، إلا انه جاء في سياق المنَّة عليه من الله!، ويتأكد الحضور برسمه التابع من لغة التحذير و العتاب والتوبيخ والتسديد والتهديد والتذكير، ويدخل في هذا الإطار موضوع (مقولة القول) في القرآن، فهو ذو دلالة تصب في اتجاه الحضور الإلهي المهيمن في القرآن الكريم.

قال تعالى:﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾.

وقال تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾.

وقال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾.

في هذا التركيب اللغوي القرآني مستويات مهمة من الحقيقة، تتفاعل فيما

بينها لتؤكد الحضور الإلهي التام في القـرآن، وفي الوقـت نفسـه الحضـور الهامشي لرسول الله بالنسبة لحضور الله جل وعلا.

تُرى لماذا لم يأت الجواب على السؤال المطروح مباشـرة، وذلك بـدون تصديره بكلمة (قل)؟

ليس من شك ان الجواب بصيغة (مقول القـول) ابلـغ في الدلالـة علـى المصدر المفارق لهذا الجواب، فيما الجواب المباشر قـد يوحـي بالمسـؤولية الشخصية، بل ربما الجواب المباشـر قـد يُتخـذ دليـلاً قاطعـاً علـى هـذه المسؤولية من قبل الجاحدين، الذين كانوا ينتظرون كل ما من شانه الإيهام بالعلاقة المصدرية بين محمد والقرآن، ومـن المعلـوم ان العـرب أصحـاب ذائقة لغوية فذة، كانوا يتابعون كلامه بدقة حاذقة، ويقلبونه على اكثر مـن وجه، لعلهم يقعون على هفوة ولو في سياق مـن التـأويلات المعقـدة بغيـة توظيفها لصالح هذه الدعوة.

امتداداً للطرح السابق نتساءل ايضاً:

ترى لماذا لم يأت الجواب باستخدام كلمة أُخرى، كـأن يقـول - في غـير القرآن - يسألونك عن الأهلة فهي - مثلاً - مواقيت للناس، فلا داعي لكلمـة (قل).

في الحقيقة: ان كلمة (قل) هنا تؤدي دوراً خطيراً في تعزيز الثنائيـة بـين النبي الأكرم ومصدر القرآن كخطاب، فـ (قل) تؤكد هنا الوحي، اكثر ممـا لو جاء الجواب مجرداً منها. وهذا واضح جداً،كمـا انـها تفيـد: ان محمـداً مجرد ناقل للجواب، وليس منتجاً له بأي شكل من الأشكال ، وذلـك حتـى إذا ادعى إن الجواب وحي بطريقة من الطرق.

ولكن لماذا لم يتصدر الجواب بـ (اجب) ـ مثلاً ـ وذلك بدل (قل) او بأي أداة لغوية أُخرى، يمكن ان تصلح بديلة في أداء هذه المهمة؟

إن دلالة (قل) على النقل والإبلاغ من مصدر مؤسِّس الى آخر، أبلغ وأقوى واعمق من أي كلمة أُخرى، بما في ذلك كلمة (اجب)او أي بديل ثانٍ، ان دلالة استعمال كلمة (قل) هنا، تعني ان محمداً ينقل جواب الله على السؤال المطروح، الذي قد يكون موجهاً في بعض الأحيان الى محمد بالذات ، وإذا أردنا الدقة أكثر، انه بهذه الصيغة ينقل الجواب عن الله مباشرة، وليس جواب الله .

أما إذا تصدر الجواب بـ (اجب) ـ مثلاً ـ وذلك بدل (قل) فانه قد يوهم بأنه جواب محمد، وليس جواب الله تبارك وتعالى، فالخطاب القرآني يلاحق هنا بدقة متناهية اضعف احتمالات الوهم، التي قد تُغري بتأسيس علاقة مصدرية بين النبي والقرآن، ولو بحدود ضئيلة، بل وفي حدود إمكان الفهم الخاطئ، وإلا يستطيع محمد ان يصدِّر الجواب بكلمة أخرى، ويدعي انه كلام الله.

لنتدبر أكثر: في الجملة (يسألونك) يعود الضمير على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فهو المسؤول من قبل الأخر، وبهذا الضمير من حيث الموقع وعلاقته بالفعل والفاعل السابقين عليه يحتل محمد مركزاً أساسياً في الآية، فهو الطرف البارز والمهيمن، فالناس يسألونه إما اختباراً او استفادة او إحراجاً، ولكن هذه المنزلة سرعان ما تكون هامشية، او هذا الحضور سرعان ما يكون تابعاً إذا أكملنا الآية الشريفة، وذلك بسبب آلية مقول القول، حيث تستبطن تابعية الرسول، وتؤكد عبوديته لله تعالى، بل

تكشف عن كونه لا يملك من أمره شيئاً.

هذه الحقيقة تتجلى اكثر بقوله تعالى: ﴿**ويســـتفتونك في النســـاء قـل الله يفتيكم فيهن**﴾، وفي قوله تعالى: ﴿**ويستفتوك قل الله يفتيكـــم الكلالـة**﴾، وفي قوله تعالى: ﴿**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب**﴾ ونجد مثـل هذه الظاهرة حتى في ابسط الأمور ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقـل سلام عليكم**﴾ أي حتى علـــى مســتوى التحيـة وصيغتـها يـتراجع موقـع الرسول في القرآن إزاء الحضور الإلهي، ومن الملاحظ ان كلمة قــل وبـهذه المقتربات تكررت ٣٣٢ مرة في مواضيع شتى، العقيدة والشريعة والاخلاق والإخبار بالغيب ومقاصد الكون والحيـاة ومصـير الوجـود، وفي جميعـها تتكرس الثنائية بين محمد ومصدر الخطــاب القرآنــي، حيـث يبـدو النـبي مجرد ناقل وحسب، ولم تتعثر هــذه المهمــة أبـداً، رغـم هـذه السـعة مـن الاستعمال، وهذه الكثرة من المديات في التنوع، وهذه المفارقات الهائلة!

أين هي الخصـــائص الـتي كـان يسـميها الفلاسـفة القدمـاء بالطبـائع الإنسانية الثانية كالنسيان والوهم و ما هو على غرارهما؟ وأين هي دوافع حب الذات وضغوطات اللاشعور؟ فماذا نستفيد من هذه الحقيقة؟

(١٩)
الدليل الواضح

هناك دليل بسيط يبرهن على صدق محمد بن عبدالله، دليل ترفد في صالحه كل شواهد التاريخ الذي نعرفه ويعرفه غيرنا، مشبَّع بالحس الذي لا ينفك عن أداء دوره، وتلقي التجربة بكل كثافتها وصلادتها الى جانبه، هذا الدليل عن معايشة تنتصر لقدرتها على إثبات هذا الشأن بسبب ظهورها الصارخ، الذي لا يرتاب به الأعداء، بل هو حقيقة في ضمائرهم، وقد كانت هذه الحقيقة، هي المقتل الذي عانوا من ضغطه ومن وضوحه، وهي سبب هذا التردد الذي شغل كبرياءهم بين الرفض والقبول، انها علة هذا الصراع الذي ملأ ذواتهم، إذ هي تعلن عن أصالتها دونما أي جهد خارج دائرة البداهة، الأمر الذي يجذب عنصر الضمير بجانبه الحي، ولكن بقايا الكبرياء تلح على الجفاء لكل ما هو واضح!

قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾.

هذا الدليل هو صدقه الذي لا غبار عليه على الإطلاق، فقد كان هذا الصدق بالنسبة لمحمد ذات داخلية تصمم كل مواقفه بدون استثناء، وبهذا استحق عنوان الصادق الأمين، بطاقة تعريف لا تشهد لأعماله وأقواله بل

تشهد لذاته، لانه الصادق دائماً وابداً، فكان مضرب المثل ومحل الشاهد في أي حديث عن هذه الخلة الرائعة، ولم يكن صدقه لغة تنزلق على اللسان بعفوية النشأة، بل هي وعي تمكَّن من تكوينه، وقد عبر عن هذه الحقيقة عدو محمد التقليدي أبو سفيان وهو يصفه لهرقل، وكان هذا الأخير في معرض التحقيق عن هذا النبي، الذي يملك هذه الجرأة الغريبة، وذلك قبل ان يسلم أبو سفيان (لم يكن ليَذِرَ الكذب على الناس ويكذب على الله!)، وتقييم أبو سفيان ينبع من تجربة الشيوخ الذين عركوا الحياة وخاضوا غمارها الصعب، وهي شهادة مهمة لأنه مضطر إليها، وسبب هذا الاضطرار وضوح موضوعها وسطوع ضوئها، وكم كان أبو سفيان يتمنى لو أن في الأفق - ولو من بعيد - ما يعفيه عن هذه الشهادة المرة، ولكن ليس في اليد من حيلة، لان حياة محمد جسَّدت الصدق تماماً، وهو من كبار القوم لا يريد ان يكون عرضة لسخرية الزمن والناس، وينبغي ان لا ننسى انه في موقف مسؤول.

هذا الدليل كان محمد يستعين به، وذلك لفرط بداهته وشدة وقعه في الضمائر الحرة والعقول الناضجة بل هو الحجة المبكرة التي ألقى بها الى اقرب الناس إليه!

يقول التاريخ: لما نزلت: ﴿وانذر عشيرتك الاقربين﴾ خرج رسول الله صلى عليه وآله وسلم حتى صعد الصفا فهتف: يا صاحبا، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا أليه، فقال: أرأيتم ان أخبرتكم ان خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل انتم مصدقي؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فاني نذير إليكم بين يدي عذاب شديد.

قال أبولهب: تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.

هذا الموقف من أبي لهب و غيره ممن اعترفوا له بالصدق يكشف عن تناقض هؤلاء، فهو لم يكذب قط، وكان رسول الله يفتخر بهذه الخصلة، وربما جعل منها مدخلاً للإعلان عن نبوته الشريفة (أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب)، فلماذا هذا التصدع بالموقف؟! كان صادقاً مع نفسه وغيره، والتجربة تنبئ بذلك على نحو السليقة الواعية، أي التي تنطوي على تقدير لقيمة الصدق في ذاته، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا نصدِّق ادعاءه النبوة؟ لماذا لا نصدِّق علاقته بالوحي؟ ان التكذيب هنا يشكل إحدى غرائب التناقض الفاضح، بل هو تجسيد حسي للتناقض، خاصة وان محمداً بقي ثلاثةَ وعشرين عاماً يدعي النبوة، وبقي محافظاً على سمته التي عرف بها، لم تغيره حالة طارئة ولا عزة دائمة!

هذا الدليل قد يعترض عليه البعض لبساطته، فهو لا ينتمي الى قواعد القياس، ولا الى مقدمات ووسائط،وانما هو خطابي ... عامي... مما تعارفت عليه الفطرة العادية والسليقة الجارية، و صاحب هذا الاعتراض واهم، فان جريان الحياة ليس له من شفيع، إلا الانقياد الى قوة الصدق الذاتية، وتعميم صلاحية الصدق المجرَّب، هو الضمان الوحيد لإنقاذ الزمن من الهلاك الأبدي، فليس من المعقول ان نقبل محمداً في كل ما يشهد عليه، لان التجربة أثبتت صدقه، بلا استثناء او مفارقة، وبلا خلاف او اختلاف، ولكن هذه التجربة تتلاشى، لان موضوعها لا يعجبنا، رغم انه معقول في

ذاته، وسبق ان نال حظه المتكرر من الوقوع والحصول، بل وهناك ترقب وانتظار، ولا يليق به غير هذا الإنسان الصادق .

لقد كان محمد صادقاً في قوله وموعده وفعله وموقفه، فلماذا لا يكون صادقاً بوحيه؟ معادلة لا تستقيم على جادة من صواب التقدير او التفسير، وعندي ان صدقه الذي عرف به، اكثر دلالة على وحيه، من أي دليل آخر، مهما كان مصدره، وكيف كانت صياغته.

هذا الصدق يعززه مجمل السلوك النظيف الذي عرف به، حيث يصفه جعفر بن أبي طالب للنجاشي (... نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ...) فأي حائل يمنع من تصديقه والإيمان به اذن؟

دعوى الوحي التي أعلنها محمد صراحة، لم تكن على مستوى الإلقاء وحسب، بل هي دعوى مفصّلة، فالى جانب التلقي هناك الرؤية. **﴿انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكينٍ مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون﴾**، كان يرى جبرائيل، ليس لمرة واحدة بل لمرات، وهي ظاهرة أُخرى تدل على ثقة محمد بنبوته، ثقة لا عن استبطان او هيام في عالم الخيال، بل ثقة مملوءة بحضورها الحسي المركب، فهي سماع ورؤية، سماع ينقل محمدٌ مضمونَه بقوة واطمئنان واستعداد للدفاع عنه حتى الموت، لا يغني عنه امتلاك الدنيا بكل ما رحبت،ورؤية مفصلة، تتحدث عن الشكل والمكان والصفات! فأي جرأة متمكنة هي من موضوعها اكثر من هذا؟، حيث ان جبرائيل كان راعي تلك الرحلة الرائعة في أعماق الفضاء **﴿... فأوحى الى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. افتمارونه على ما**

يرى ...﴾ فهي ليست الدعوى العابرة التي ادعاها محمد مـرة، ثـم تركـها لتفاعلات الزمن، وتخمينات العقول، فتضيع في زحمة الاحتمالات والظنـون والأوهام، بل هي الدعوى المفصّلة الواثقة مـن كـل مفرداتـها، لا ليـوم او شهر او سنة، بل لأكثر من عقدين، تملأ الزمن بـالحدث وتصبـغ التـاريخ بالفكر وتشغل الناس وتخلق المعادلات الجديدة، فأي جرأة مطمئنة هـي الى هويتها؟!

هذا الوحي له مسـتحقاته الضخمـة بالنسـبة للمتلقـي بحكـم طابعـه الميتافيزيقي، وهي الظاهرة التي شهد بها اقرب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وآله، ففي الرواية ان رسول الله كان يعاني كثـيراً لحظـة اتصـال الوحي به، كان إذا يأتيه في اليوم الشديد البرد ينفصم عنه، وجبينه يتفصد عرقاً، وإذا كان على ظهر جمل يكاد ان يـبرك مـن الشـدة! فـهي مشـاهد الواقعة الحية وليست المصطنعة، حيث بعد ذلك يتلو ما أُوحي إليه، وهو في غاية الصفاء الذهني والروحي، وما يلقيه يأخذ مجراه من الثبوت الراسـخ الذي لم ولن يتغير، وينال حظه القطعي من التقديس الكامل بدون مراجعـة أو تردد، وبهذا يفترق بحسم جذري عن أي كلام أخر! وما ذلـك إلا لهويـة فاردة يتميز بها الكلام الجديـد، الـذي تصاحبـه هـذه العـوارض ... انـه الوحي.وما قيل عن الناسخ والمنسوخ أُسيء فهمه، فهو لا يعني رفع حكـم بأخر على نحو كلي وشامل، بل المسألة خاضعـة لضوابـط لا تمـت بـأي صلة لمثل هذه التصورات، من هذه الضوابط العموم والخصوص والمطلـق والمقيد والمفهوم والمصداق والنظرية والتطبيق، حيث لا نسخ ولا تبديـل في

أحكام الله تعالى و لا مجال للخوض في هذه القضية الآن، وقد عالجها كثير من العلماء بدقة متناهية منهم السيد الخوئي رحمه الله.

ولكن هناك الكثير من ادعى صلته بعالم الغيب، ولعل من اقرب الأمثلة في هذه القضية، دعاة تسخير الجن او بعض القوى الخفية! وهي مقارنة ساذجة، إذا لم تكن مقصودة، فالله غير الجن، والمدعون هنا في صراع من اجل التطويع، وهناك تقوى وعبادة وطاعة، والوحي يهدف بناء أُمة، وهو فكر وتشريع وتربية، فأين هذا من ذاك.

كان الوحي أحياناً يتباطأ، فيما الرسول في اشد الحاجة إليه! ولقد كانت المدة الفاصلة بين قوله تعالى (اقرأ ...) وقوله تعالى (يا أيها المدثر...) أربع سنوات، كما تقول مدونات السيرة الشريفة، ومن المعلوم ان فترات الانقطاع كانت تتفاوت، ورسول الله كان يحزن لهذا الانقطاع، ويعاني كثيراً، وغالباً ما يثير الأعداء الشبهات والتساؤلات حول هذا الانقطاع، ويقلق لذلك المؤمنون، وكل هذا يعني ان الوحي ليس في قبضة النبي، وهو خارج إرادته، وغير خاضع لمزاجه، وهو ليس عملية باطنية، ولو كانت نبوته من صميم إرادة مسبَّقة ... لغاية مصطنعة ... لاستدراج الأعوان والمؤيدين ...لترويض الناس على نظام مقترح او مأمول ... لكانت ظاهرة الوحي تحت الطلب دائماً، لكانَ الوحيُ حاضراً عند الحاجة ...

(٢٠)
شيء عن أسباب النزول

حاول البعض ان يفسر القرآن كله في ضوء ما يعرف بأسباب النزول، ويسعى من وراء ذلك الى الاستنتاج بان القرآن جاء تعبيراً خالصاً عن الواقع السائد، وبالتالي ان النص القرآني عبارة عن مرحلة عابرة، لانه وليد مرحلته! ويدعي هؤلاء ان موقفهم هذا مشتق من القرآن ذاته، ولست ادري ماذا يقول هؤلاء إذا علمنا ان مئات من الآيات لم يرد فيها سبب، وان ظاهرة السببية هنا، لا تتجاوز عشرين بالمائة من مساحة القرآن! ومن الحقائق المهمة في هذا الموضوع، ان الكثير من هذه الأسباب المدعاة تستند الى أخبار آحاد، وبعضها تستند الى روايات مرسلة، وبذلك من الصعب ان نتخذ منها مادة موثّقة في هذا الموضوع.لقد فات هذا النفر من الباحثين، ان هذه الأسباب أنما هي اسم على غير مسمى، انها مناسبات نزول وليست أسباب نزول، وكان الأولى بهؤلاء ان يدرسوا هذه الآيات وغيرها في ضوء مقتربات أُخرى، نابعة من القرآن نفسه، فهذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾، وهو ﴿ذكر للعالمين﴾، ونبيه ﴿رحمة للعالمين﴾، و هو ﴿خاتم النبيين﴾، والدين الذي يجسده هذا القرآن كامل وتام ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت

عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾، وان موضوع القرآن هو الإنسان في كل زمان ومكان ﴿ان الدين عند الله الإسلام﴾، ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً لن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، فالآيات التي نزلت مقترنة بسبب معين - ونقول ذلك مجازاً - إنما يجب ان تخضع للكليات العقيدية التي وصف بها القرآن نفسه، ولهذا مجرد ان تنزل الى الواقع، تأخذ صفة الحكم الشرعي، وتكون مصدر إحالة، وفيصل حكم، وتترتب عليه مستحقات الالتزام والتطبيق، وعليه ان ما يعرف بأسباب النزول، مجرد مناسبات لا اكثر ولا أقل، ولو كانت هذه الأسباب منشئة للنص أساساً، فلماذا إذن يتعدى ظروف نشأته؟ لماذا يتسم بعد نزوله بالعمومية والديمومة؟ لماذا يتحول الى حقيقة مطلقة؟ومن الطبيعي ان هذا لا يمت بصلة الى المثالية أبداً كما يرى البعض، لان الواقع هو محل النظر في القرآن، ولان طبيعة هذا النظر ليست خيالية او بعيدة عن ممكنات الواقع، وهو نظر يربي الإنسان على المضي قدماً، ويفجر فيه فاعلية التطلع الى المستقبل.

هؤلاء يدَّعون الأيمان بالقرآن، ويدَّعون الاستلهام من روحه ومنهجه، ولكن القرآن يعطي لنفسه تاريخا سابقا على هذه الحوادث التي يهبونها شرف التأسيس ﴿إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة ...﴾، ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت ...﴾، وعلى صعيد آخر هناك تاريخ اقدم ﴿بل هو قران مجيد. في لوح محفوظ﴾، وذلك بغض النظر عما قيل عن هذا اللوح، وعن كيفية هذا الوجود، وأنا أُسجل هذه الملاحظة لان بعضهم أراد تزييف هذه الحقيقة من

خلال التشكيك ببعض المفارقات التي رويت في خصوص هذا اللوح!

ان المقتربات العقائدية في القرآن هي الضوء الذي يجب ان نستهديه في اكتشاف هوية النص و مقصده، بل وحتى كيفية تشكيله وتركيبه، وما يعرف بأسباب النزول هي مجرد مناسبات، واذا أردنا ان نتساهل، هي أسباب ظهور وليست أسباب نشوء، واذا دققنا جيداً في البنية الداخلية للنص القرآني ـ المقترن بمناسبة ما ـ لاكتشفنا ان هناك غايات تتصل اتصالاً وثيقاً بهوية هذا الدين ومراميه وأهدافه الكبرى.

لقد نزلت سورة (تبت) في حق أبي لهب وامرأته حمالة الحطب، ولكن التدقيق في الآية يكشف ان المقصود البعيد هو أبولهب النوعي، وان هذا المشار إليه مجرد مرآة، بدليل ان القرآن كثيرا ما يستعرض الحقيقة الجوهرية للسورة، وذلك عبر آيات وحوادث ومشاهد وقصص أخرى، والوعيد الذي تسجله هذه الآية، ليس مخصوصاً بأبي لهب، بل بكل شخص ارتسم خطى أبي لهب، فأبولهب هنا نموذج توضيحي، وبالتحليل الأخير نحن بين يدي فكرة، ونحن اخترنا هذا النموذج لانه أقوى شاهد يمكن ان يستعين به أصحاب هذا المشروع، ومن الغريب ان يدعو هؤلاء الى دراسة النص القرآني دراسة بنيوية، تأخذ بنظر الاعتبار فضاء النص، ويسترشدون منهج الاحتمال، و تكّثر المعنى، ويتبنون النظرية التي تقول ان القرآن حمّال اوجه، وهم لا يعلمون ان حصر النص في نطاق سببي محدد، وجعله وليد ظروف مسماة، لا يساعد على مثل هذا التوجه العميق.

وان التعامل الصحيح مع النص بأنه من الله، جاء لعلاج الواقع المتجدد، وان آياته تجري مجرى الليل والنهار ... هذا النوع من التعامل والتصور

في حق القرآن الكريم هو الذي ينسجم مع التوجهات المقترحة.

يقول تعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أوَلم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾، وملخص الآية: ان المزيد من النظر والتدبر والتفكر في العالم والذات الإنسانية يوصل الى الاعتقاد بان هذا القرآن حق! وانه يستوعب الواقع على تغيره وتجدده ، وان النص القرآني مفتوح، وان أبا لهب في النص هو مجرد نموذج توضيحي، والفكرة هي الأساس ومنها تتنوع الآراء وتتكاثر وجهات النظر، ويتخلق الفضاء و تتفجر الاحتمالات، وذلك على مديات واسعة، وعودة سريعة لما كتب عن القرآن وتفسيره طوال هذه العقود من السنين تؤكد هذه الحقيقة.

لقد نعت القرآن نفسه بأنه نزل في الحق وبالحق، وانه هدى للعالمين، وانه خالد، و مطابق للكون، وانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو تبيان لكل شيء.

وبعد كل هذا هل يصح ان يزعم البعض: ان النص القرآني نتاج أبنية اقتصادية واجتماعية وثقافية خاصة؟! حيث يتعامل مع القرآن وكأنه قصيدة جاهلية، او كأي إنتاج بشري على مر العصور والدهور. أعيد واكرر باني أتحدث بهذه اللغة لان أصحاب هذا المشروع يدَّعون الإيمان بالوحي!

والحمد لله رب العالمين.



المحتويات

غالب حسن

- ❑ من مواليد بغداد عام ١٩٤٤.
- ❑ ليسانس لغة عربية وعلوم قرآن من كلية اصول الدين في بغداد.
- ❑ دبلوم تربية وعلم نفس من جامعة بغداد.

آثاره

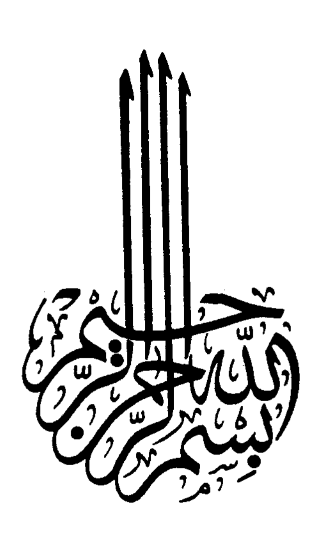
- ❑ الوجود في القرآن الكريم.
- ❑ الفكر العميق في الازمة الحضارية.
- ❑ الفلسفة الماركسية: عرض والنقد.
- ❑ نحو وعي سياسي عربي.
- ❑ الشهيد الصدر مفجر الثورة الاسلامية في العراق.
- ❑ مشكلة تدوين الحديث في العصر النبوي.
- ❑ نظرية العلم في القرآن.
- ❑ الوجود الحي.
- ❑ أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم (هذا الكتاب).

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبدالجبار الرفاعي

العنوان	المؤلف
* اشراقات الفلسفة السياسية	كامل الهاشمي
* الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
* منهج الامام في التفسير	عبدالسلام زين العابدين
* علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
* المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
* الامام السجاد	حسين باقر
* اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
* اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
* اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
* جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
* فقه التحيز	عبدالوهاب المسيري
* اسلمة الذات	كامل الهاشمي
* نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
* القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
* مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
* تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبدالجبار الرفاعي
* قضايا التجديد	حسن الترابي
* نزعة التغريب	جلال آل احمد
* الدستور والبرلمان	جعفر عبدالرزاق
* الفكر الاسلامي: تطوراته ومساراته	زكي الميلاد
* علم الاستغراب	حسن حنفي
* الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
* المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
* أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
* اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
* مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني


بسم الله الرحمن الرحيم